PIERRE AND LUCE

"من أجمل ما كُتب عن الحب والحرب"

رواية

بيير ولوس



نوبل 1915

رومـــان رولان

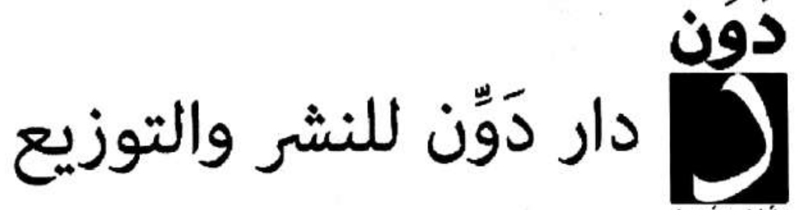
ترجـمـة: ماريانا ماسا

دار دوّن

رومان رولان

بيير ولوس

رواية



دار دَوِّن للنشر والتوزيع

مدة الحكاية

من يوم الأربعاء 30 يناير مساءً إلى الجمعة العظيمة 29 مارس 1918



دفع بيير بجسده داخل قطار الأنفاق، وسط حشد بشري وحشي ومحموم، وقف قريبًا من الباب مضغوطًا بكتلة من الأجساد تتقاسم معه الهواء الثقيل الذي تنفثه أفواههم في المكان.

كان يحدق بلا مبالاة بالآخرين في الأقبية السوداء الراعدة التي تنعكس عليها أضواء القطار، الظلال ذاتها والأضواء الكثيفة ذاتها خطرت في ذهنه قاسية ورائعة في آن.

يملؤه شعور بالاختناق من ضيق معطفه وياقته، من ذراعيه الملتصقتين بجسده وشفتيه المطبقتين، جبينه مندّى بالعرق، مع لسعات برد من هبات هواء ثلجي كلما فُتِح بابُ القطار.

حاول أن يحبس أنفاسه، أن لا يفكر، ولا يحيا.

يأس داكن يملأ قلب هذا الفتى الذي يلج عتبة الثامنة عشرة من العمر.

فوقه، وفوق ظلام الأقبية في ذلك النفق الضيق مثل جحر فئران، يسير فيه هذا الوحش المعدني المكتظ بالناس وكأنهم يرقات بشرية، فوق كل ذلك كانت مدينة باريس، الثلج، ليالي يناير الباردة، كابوس الحياة والموت، والحرب.

الحرب المستمرة منذ أربع سنوات أثقلت كاهله في فترة مراهقته، وفاجأت الغلام في أزمته الأخلاقية الناتجة عن صحوة الحواس المضطربة حيث يكتشف القوى الوحشية والعمياء والساحقة لتلك الحياة التي تفترسه دون أن يكون له رغبة في تجربتها.

أما بالنسبة لشاب رقيق الطبع، بقلب حنون وجسد هش، مثل بيير، فسيكون ممتلئًا

بالاشمئزاز والرعب تجاه كل هذا القبح، وسيكتم شعوره تجاه هذه القذارة والوحشية وعبث الطبيعة الخصبة والنهمة، مثل خنزيرة تفترس ثمار رحمها بعد الولادة.

في تلك الفسحة الزمنية بين السادسة عشرة والثامنة عشرة من العمر، تحيا الروح عادةً بالأحلام والفنون حاملةً داخلها بعضًا من روح هاملت، لا يمكن لكم _في هذا العمر_ أن تطلبوا منه أن يفهم الحرب، (كم أنتم محظوظون أيها الرجال البالغون!) فلديه ما يكفي من وقت كي يفهم معنى الحياة ومعنى الغفران، الفتيان اليافعون يتدثرون بالأحلام والفن حتى يعتادوا جسدهم الجديد وتحولهم المضني من يرقات إلى حشرات.

إنهم يحتاجون إلى الهدوء والعزلة في ربيع العمر، عندما يعكر البلوغ سكون الحياة.

وبدلاً من أن يتركهم الناس في مسارهم الحر، يبحثون عنهم في مخابئهم، ينتزعون منهم أجسادهم الناعمة الجديدة، يلقون بهم دون رحمة في أتون حياة الكبار، ثم يطلبون منهم أن يتقبلوا دون فهم جنون الرجال وكراهيتهم.

استُدعيَ بيير مثل بقية زملاء صفه ممن بلغوا الثامنة عشرة، بعد ستة شهور سيحتاج الوطن إلى لحمه، الوطن يناديه.

لديه الآن ستة أشهر من التأجيل، ستة أشهر فقط! ليته استطاع أن يوقف تفكيره خلالها، ليته بقي في مخبئه كي لا يبصر هذا النهار القاسي.

غطس في ظلال الأنفاق، مع القطار الهارب، وأغمض عينيه.

عندما فتحهما من جديد، لمح على بعد خطوات تفصله عن جسدين غريبين، شابةً شقراء صعدت القطار للتو، بداية لم يرَ سوى الملامح الرقيقة الجانبية لوجهها، حلقة

شقراء تحت ظل قبعتها تبدو مثل ثريا تتدلى على وجنتها، خط الأنف الناعم، شفاهها المرتخية الصغيرة تنبض بسبب الركض الذي اضطرت إليه لتلحق بالقطار.

دخلت قلبه بكل ما فيها من خلال عينيه ثم أغلقت باب القلب خلفها، سكن الضجيج في الخارج، ساد الصّمت والسّلام، إنها هنا.

لم تكن تنظر إليه، بل لم تكن تدري بوجوده بعد، لكنها سكنَتْ روحه.

حاول بيير أن يحفظ صورتها الساكنة المحتمية بذراعيه، فيما هو لا يجرؤ على التنفس لئلا تشعر بأنفاسه.

في المحطة التالية، وجد بيير نفسه ضعيفًا تتقاذفه أمواج البشر الذين كانوا يتبارون في الصُراخ فوق أنفاق المترو، في المدينة، كانت أصوات التفجيرات تتناهى لمسمعه مكتومةً ضعيفة، وفي اللحظة التي غادر فيها القطار مجددًا، انتبه لرجلٍ مذهولٍ يغطي وجهه بكفيه ويهرول إلى الأسفل، كان لدى بيير متسع من الوقت ليرى الدم النافر من بين أصابعه.

النفق والليل مرةً أخرى، صرخات الخوف تعلو "جاءت طائرات الجوثاس"(1).

في هذه الأثناء التي اتحدت بها مشاعر تلك الأجساد المكتظة حتى بدوا أقرب إلى إنسان واحد، شعر بيير بدغدغةٍ في يده، رفع نظره فوجد أنها هي.. ذات الفتاة.

لم تتخلص من يده، عند ضغط أصابعه كانت أصابعها تتجاوب، متأثرة، منكمشة قليلًا، ثم تستسلم بنعومة وتحترق دون أن تتحرك.

بقيا كذلك، تحتضنهما ظلال، يداهما عصفوران في عش واحد، قلباهما ينبضان

بإيقاع واحد، يشعران به في الكفين الدافئتين، لم ينطقا كلمة، لم يأتيا بأي حركة، يكاد فمه يلمس خصلتها المائلة على أذنها، فيما الفتاة لا تنظر إليه.

بعد محطتين فكت يدها عن قبضة بيير، رغم أنه لم يمسك بها، انزلقت بين الأجساد إلى الخارج، وغادرث دون أن تنظر إليه.

حينما اختفت، فكّرَ بيير أن يلحق ببها، لكنه تأخر واستأنف القطار سيره.

في المحطة اللاحقة، صعد بيير إلى السطح ليلفحه هواء الليل مرة أخرى، الملمس المخفي لندف الثلج، والمدينة، المدينة المرعوبة والمستمتعة برعبها، والتي تحلق فوقها الطيور المقاتلة، لكن بيير لا يرى إلا تلك الفتاة التي سكنَتْهُ، وعاد إلى منزله ممسكًا بيد إنسانة مجهولة.

كان بيير أوبير يسكن مع عائلته بالقرب من ميدان كلوني.

كان أبوه قاضيًا، وأخوه الأكبر منه بست سنوات قد تطوع في الجيش منذ بداية الحرب.

عائلة برجوازية تقليدية، تفتخر بفرنسيتها، أشخاص طيبون يمتلكون حسًا إنسانيًا، لم يجرؤوا على التعبير عن آرائهم الخاصة، وعلى الأرجح لم يتصوروا يومًا أن بوسع المرء أن يفعل ذلك.

كان الأب القاضي شخصًا شريفًا في داخله، يقدّر مهام منصبه تقديرًا عاليًا، ويرفض غاضبًا التشكيك في أن أحكامه ناتجة عن اعتبارات لا علاقة لها بالعدل وعن صوت ضميره، فهذا التشكيك كان بالنسبة له إهانة كبرى.

لكن صوت ضميره لم يتحدث (أو بتعبير أدق: لم يهمس) ضد الحكومة.

ضميره ضمير موظف حكومي يفكر وفق قوانين الدولة المتغيرة لكن المعصومة من الخطأ؛ فالقوى السائدة تعتبر بالنسبة له حقيقة مُقدسة.

أعجب بإخلاص قضاة الماضي العظماء، ذوي النفوس الحديدية، ربما راودته مرارًا فكرة أنه ينتمي إلى سلالتهم دون أن يجهر بها.

كان القاضي أوبيير نسخة مصغرة عن "ميشيل دي لوسبيتال"(2) مرّ عليها قرن من العبودية الجمهورية، أما السيدة أوبيير فكانت متمسكة بعقيدتها المسيحية، بقدر تمسك زوجها بالأفكار الجمهورية.

فكما وضع الأب نفسه في خدمة السلطة بكامل الطاعة والصدق، وضد أية حرية غير رسمية، كانت الزوجة ترفق صلواتها النابعة من قلبها النقي مع الأدعية بالقتل التي تشكلت على أساسها نفوس الكهنة الكاثوليكيين والرعاة البروتستان والحاخامات والباباوت والجرائد والمفكرين الصالحين في أوروبا كلها حينذاك.

كلا الأبوين كان يعشق أطفالهما مثل كل الفرنسيين الأصيلين، ويشعران تجاههم بمودة عميقة وصادقة، وضحّيا بكل شيء من أجلهم، وبالتالي لم يترددا في التضحية بهم، كما فعل بقية الشعب.

وكما هو حال الكثير من الأسر، كانت أسرة بيير تتسم بالمودة الكبيرة بين أفرادها وبغياب الخصوصية.

كيف يمكن التعبير عن الأفكار بحرية عندما يكون كل فرد من أفراد الأسرة منغلقًا على نفسه ويتجنب التدقيق في أفكاره الخاصة؟

مهما كان أفق المرء ومشاعره، فلا بد له من الالتزام ببعض العقائد الدينية، الأمر الذي يصعب تحقيقه في حالة عقائد مغلقة في سياق محدود (كما هو الحال بالنسبة لفكرة الحياة الآخرة / الحياة بعد الموت)، ناهيك عن العقائد الدينية التي تدّعي أنها تحكم العلاقات بين البشر في الحياة الدنيا قاطبة، كما تفعله أعرافنا الملزمة غير الدينية، مثل المشاركة في حرب ليست حربك ولا تتوافق معها.

الويل لك إن نسيتَ فكرة الوطن! فالديانة الجديدة تعود بنا إلى العهد القديم، ولا يرضيها الإخلاص الشفهي والممارسات البريئة، الصحية، التافهة، كالاعتراف، صوم يوم الجمعة، وراحة يوم الأحد.

هذه الممارسات التي أثارت حماس فلاسفتنا في تلك الأزمنة حين كانت الشعوب حرة تحت قيود الملوك.

أما الديانة الجديدة فهي تريد كل شيء، ولن ترضى بأقل من ذلك؛ إنها تريد الإنسان بأكمله، جسدًا ودمًا وحياةً وفكرًا، وعلى الأخص تريده بدمه.

منذ عهد الأزتيك في المكسيك، لم تكن الآلهة تتصف بكل هذا الشغف، وعدم الاعتراف بمعاناة المؤمنين قد يكون أمرًا ظالمًا، ولكنهم ظلوا مؤمنين.

أيها الإخوة المساكين، أنتم الذين ترون في المعاناة دلالة على وجود الله.

وكما الآخرين، عانى السيد والسيدة أوبيير وأحبّا حتى العبادة.

لكن لا يمكن أن نطلب من مراهقٍ أن ينكر قلبه أو غرائزه وتفكيره السليم.

رغب بيير في أن يفهم على أقل تقدير ما الذي يضطهده، كم من الأسئلة اشتعلت داخله ولم يستطع أن يبوح بها؛

لأن الكلمة الأولى هي: "وماذا لو قلت إنني لا أومن بذلك؟!" ستعتبر تجديفًا لا يُغتفر، وسينظرون إليه بذهول مخيف وبسخط وأسف وعار.

وبما أن بيير كان يمر بتلك المرحلة الحساسة من العمر، حيث تكون للروح قشرة رقيقة ما إن تهب عليها رياح العالم الخارجي -الذي ينحتها بأصابعه الخفية- حتى تنثني وترتجف، فقد كان يشعر فعلاً بالحزن والعار.

آه! كيف يستطيعون أن يؤمنوا بهذا كله؟! (وهل يؤمنون فعلا؟!) فكيف يفعلون؟!

لم يتجرأ أحد على طرح تلك الأسئلة، وأن تكون الوحيد من بين الجماهير المؤمنة لا يحمل ذلك الإيمان، تبدو كما لو أنك إنسان مشوه ينقصه عضو من أعضاء الجسد، ربما يكون عضوًا بلا فائدة تُذكر، لكن الجميع يمتلكونه، الأمر الذي يجعلك تخجل من أن يرى الناس جسدك العاري.

الشخص الوحيد الذي استطاع أن يفهم هواجس بيير هو أخوه الأكبر فيليب.

أحبه بيير حب الأخ الصغير تجاه الأخ الأكبر أو الأخت الكبرى أو صديق غريب، شخص رأوه لساعة واحدة واختفى.

كان بيير حريصًا ألا يفشي ذلك الحب، كما يفعل الإخوة الصغار، فالأخ الأكبر جسّد لدى بيير في آن واحد المثال الذي يحلم أن يكونه يومًا، والذي يريد أن يحبّه مستقبلاً.

إنه الصورة المتجسدة لمشاعره النقية المشتعلة، ولاضطرابات المستقبل بتياراته المختلطة.

لاحظ الأخ الأكبر مجاملة الأخ البسيطة، وكان مستمتعًا بها.

منذ وقت قريب كان فيليب يحاول أن يقرأ ما في قلب الأخ الصغير ويشرحه له بحذر؛ لأنه -رغم ما يبدو عليه من قوة جسدية تفوق بيير- إلا أن فيليب كان رجلاً مخلوقًا من تلك العجينة الرقيقة التي تشكل أفضل الرجال لأنها تحمل بعض صفات الأنوثة، دون أن تكون مدعاة للخجل.

لكن الحرب جاءت وانتزعته من حياته المهنية ودراساته العلمية، وأحلام الشباب في العشرين من العمر، والعلاقة القوية مع الأخ الأصغر.

لقد ترك كل شيء، ليلحق بوهم مثالية البدايات الجديدة، مثل طائر مجنون ينطلق نحو الفضاء بدافع الوهم البطولي والعابث بأن منقاره ومخالبه ستنهي الحرب وتعيد السلام إلى الأرض.

منذ ذاك الحين، عاد الطائر العظيم مرتين أو ثلاث مرات إلى العش، في كل مرة كان يعود وقد تساقط بعض ريشه، يعود بأحلام مكسورة، لكن الحزن يمنعه من أن يعبر عن ذلك.

لقد شعر بالخجل لأنه صدّق الحرب.

يا للغباء! ألا نرى الحياة كما هي؟! فالآن اجتهد حتى ينزع الحياة عن تلك الأوهام ويقبلها بصبر، مهما كانت صعوبتها.

لم يدفعه الحزن والمعاناة إلى أن يلوم نفسه فحسب، بل أيضًا أوهامه المنعكسة على روح أخيه الأصغر.

فحين عودته الأولى هرول بيير محترقًا من لهفة قلبه الحبيس، أوقفته نظرة الأخ

الكبير التي ما زالت حنونًا لكنها تحمل نبرة من السخرية المرة.

فجأة اغتيلت الأسئلة التي تزاحمت على شفتيه.

كان فيليب يتنبأ بالأسئلة، وبكلمة، أو بنظرة، يسكتها.

بعد محاولة أو اثنتين انسحب بيير بقلبه المجروح.

لم يعد يعترف بأخيه.

أما فيليب، فاعترف بأخيه بوضوح تام، رأى فيه نفسه كما كان سابقًا، لكنه لم يعد قادرًا أن يكونه.

جعله يدفع ثمن تحوله، وندم، لكنه لم يعبر عن ندمه، بل بدأ من جديد.

عانى كلاهما، وبسبب سوء التفاهم المتكرر بينهما، تفصلهما المعاناة التي من المفترض أن تجمعهما.

الفرق الوحيد بينهما هو أن فيليب على علم بقرب حدوث تلك المعاناة، أما بيير فقد رأى نفسه وحيدًا في معاناته دون أن يجد أحدًا يفتح له قلبه.

لماذا لم يلجأ إلى الشباب من جيله، رفاق المدرسة؟ من الواضح أن هؤلاء المراهقين من المفروض أن يجتمعوا ويساندوا بعضهم، لكن هذا لم يحدث، بل على العكس، لقد فرّق بينهم قدَر حزين وشتتهم إلى مجموعات صغيرة، وحتى ضمن تلك المجموعات صاروا متباعدين، تفصلهم عن بعضهم مسافات شاسعة.

كان الأكثر فظاظة بينهم هم من غطسوا برؤوسهم في لجة الحرب، مغمضي

العيون.

لكن أغلبيتهم ابتعد عن التيار، دون أن يشعر بأي ارتباط بمن جاء قبله، فلم يشاركوا هواياتهم وآمالهم وكرههم، بل كانوا ينظرون إلى رفاقهم المنهمكين في الحرب كرجال صائمين ينظرون لمن يشرب.

وماذا يستطيعون أن يفعلوا ضد الحرب؟ الكثير منهم أسس مجلات صغيرة تنطفئ حياتها الفانية لنقص الهواء، فبعد إصدار الأعداد الأولى كانت الرقابة تتدخل لتعيد الساحة إلى حالة الفراغ، كانت فرنسا بأكملها تحت سيطرة جرس الإنذار الهوائي (صافرات الإنذار).

كان الشباب الأكثر تميزًا بينهم أضعف من أن يستطيعوا القيام بثورة، بينما تمنعهم عزة النفس من الشكوى، مع يقينهم أنهم واقعون تحت ساطور الحرب لا محالة.

وفيما كانوا ينتظرون دورهم في مسلخ الحرب، شاهدوا وحاكموا الأمور بصمت، كلٌّ على حدة، بقليل من الاشمئزاز وكثير من السخرية.

ولأنهم يحتقرون عقلية القطيع السائدة، فقد عزلوا أنفسهم في نوع من الأنانية الفكرية والفنية، الحسية المثالية، حيث تمردت الأنا المطاردة مطالبةً بحقوقها ضد الشراكة الإنسانية في الحالة القطيعية، ضد ذلك التعاون المهزلة، الذي لم يبدُ لهؤلاء المراهقين إلا مشاركةً في جرائم القتل التي يرتكبونها تحت ستارها، ويسقطون جميعًا ضحايا له!

تجربة مبكرة أسقطت أوهامهم، فقد لمسوا هشاشة تلك الأوهام وما آلت إليه عند إخوتهم الكبار، الذين رغم عدم إيمانهم بها يدفعون حيواتهم فداءً لها.

فقدوا الثقة في الشباب من أبناء جيلهم، وفي الرجال بشكل عام.

وبكلمة أوضح كانت كلفة الثقة عالية في تلك الأزمنة!

كل يوم كان هؤلاء الشباب يسمعون عن الكثير من الوشايات والمحادثات الحميمة لجاسوس "محب للوطن" تقدره السلطة وتشجعه.

لذا بادروا إلى دعم بعضهم بما أمكن نظرًا لنزوعهم الشديد للعزلة الروحية، وضجرهم واشمئزازهم من هذا الواقع.

لم يستطع بيير أن يجد بين الشباب المجايلين له صديقًا صدوقًا، ينصحه ويسنده في هذه المرحلة العمرية الصعبة، كما كان "هوراشيو" لـ "هاملت".

وإن كان يشعر بالاشمئزاز من جهة بسبب ابتعاد قناعاته عن الرأي العام السائد (تلك الفتاة العادية)، فهو من جهة أخرى بحاجة إلى أن تصبح هذه القناعات جزءًا من آراء الناس الذين يختارهم.

كان بيير هشًا وعاجزًا عن الاكتفاء بذاته، يعاني من الكارثة الكونية التي سحقته بعذابها وآلامها.

لكن معاناة بيير مفرطة ومبالغ فيها، فالإنسانية كانت قادرة على تحمل تلك المعاناة؛ لأن جلدها أقسى من جلد المراهق الضعيف.

الأمر الذي لم يكن بيير يبالغ فيه، والذي كان ينهكه، لم تكن معاناة الكون، بل غباءه.

لا ألم في المعاناة، ولا ألم في الموت، إن كان لهما سبب معقول، إذ إن التضحية جائزة من أجل هدف واضح ومبررات مقنعة.

لكن ما معنى الكون وتمزقه بالنسبة لمراهق؟

أي معنى للعالم ودموعه بالنسبة لمراهق؟

إذا كان ذلك المراهق صالحًا سليم العقل، كيف يمكن أن يهتم بالمعركة الطاحنة التي تخوضها الأمم ضد بعضها، مثل أكباش مغفّلة على حافة الهاوية التي ستبتلعهم معًا؟

حتى لو كان الطريق إلى الهاوية يتسع للجميع، ما سبب هذا الجنون للتدمير الذاتي؟

ما سبب وطنية الأمم، وسرقة الدولة، وتربية الشعوب على القتل كأنه واجب إنساني؟

لماذا سفك الدماء بين كل الكائنات؟

لماذا يلتهم العالم نفسه؟

لماذا هذه السلسلة الكابوسية من الوحشية التي لا حدود لها؟

حيث كل عقدة تعضّ العقدة التالية، وتنهش لحمها، وتستمتع بألمها، وتعيش من موتها؟ لماذا الصراع ولماذا الألم؟ لماذا الموت؟ لماذا الحياة؟ لماذا؟ لماذا؟

ذلك المساء، عندما عاد الطفل بيير إلى منزله، كان ضجيج الأسئلة في رأسه قد هدأ.

لا جديد هنا على كل حال، بيير في غرفته منكبٌ على أوراقه وكتبه، حوله صخب العائلة، في الشارع صوت صافرات الإنذار يعلن انتهاء الخطر إلى حين.

دردشات المستأجرين الممتلئة بالرضا، في القبو الممتد على طول الدرج، عن نجاتهم هذه المرة أيضًا.

في الطابق الأرضي كان الجار القديم يؤدي مسيرته الجنونية داخل منزله في انتظار ابنه المختفي منذ شهور.

وفي غرفة بيير، غابت مخاوفه الكامنة التي قد تركها هناك.

في الموسيقى قد يحدث أن نغمًا معينًا يبدو صاخبًا بشكل من الأشكال، فيبث القلق في روح المتلقي، حتى اللحظة التي يتم فيها إضافة نوتة موسيقية فتتآلف العناصر المتنافرة، تتفاعل وتنسجم، مثل زوار غرباء ينتظرون أن يتعارفوا، وما إن ينكسر الجليد حتى يبدأ الانسجام بينهم، مثل رد فعل كيميائي يجمع الأرواح بهدوء في الخفاء، هذا هو ما حدث لبيير.

لم يكن قادرًا على تحديد سبب هذا التَّغيُّر المفاجئ، ولم يفكر حتى بتحليله ومعرفته، لكنه أدرك أن عداءه المعتاد للأشياء بدأ بالانحسار، مثل ألم واخز ينتاب رأسنا لساعات طوال، ثم فجأة نكتشف أنه ذهب، كيف ذهب وما زالت الأصداغ تتذكره بوضوح؟

بقي بيير مرتابًا من هذا الهدوء الطارئ، تنتابه شكوك بأنها أقرب إلى مهلة عابرة تخفي وراءها مأساة جديدة وستعود أشد قسوة.

يعي الراحة الروحية التي يجلبها الفن، عندما تعانق عيوننا ذلك التّناسق الإلهي للخطوط والألوان، وكل ما يدخل الآذان المرهفة الشغوف من أنغام تتشابك وتتداخل

وفق قواعد وأرقام التناغم الموسيقي.

السلام يأتي إلينا والسرور يغمرنا، إنه كشعاع ضوء يردنا من الخارج، يشعرنا بأن الشمس بدأت ترسل إلينا أنوارها البعيدة، فتسحرنا، وتتركنا نسمو في هذه الحالة، فوق متاعب الحياة.

لكنها لحظة لا تلبث أن تزول، فنسقط.

ما الفن في أحد وجوهه سوى هروب عابر من الواقع.

بيير الذي اعتاد الخوف، توقَّع خيبة أملٍ جديدة، إلا أن الشُعاع هذه المرة كان نابعًا من الأعماق، من الباطن.

لا يمكن نسيان أي شيءٍ حدث في الحياة، إنما يمكن تنسيق كل شيء، فالذكريات والأفكار الجديدة والأشياء والكتب والأوراق في هذه الغرفة، انتعشت جميعها، واستعادت الاهتمام الذي افتقدته.

منذ أشهرٍ عدة، كان تطوره الفكري يتسارع ويتكثف كشجرةٍ صغيرةٍ مليئةٍ بالأزهار التي ذبلت بسبب "أيام قديسي الجليد"(3)، إذ إنه لم يكن من أولئك الشبان الانتهازيين الذين يستفيدون من التسهيلات التي تمنحها الجامعات للشباب الصغار المطلوبين للتجنيد، للحصول على دبلوم لا يستحقونه تحت عيون المشرفين والأساتذة المتسامحين.

لم يكن بيير يعي جشع جيل الشّباب الذي يستشعر الموت المتربص به، يحاول بنهم تلقف معرفة لن يتمكن من التّحقق من صحتها.

ذلك الشعور الدائم بالفراغ الذي أوشك على الحضور، ويقف تحت قدميه، ويختبئ في وهم الواقع القاسي والعابث، كان يطفئ كل حماسه.

رمى نفسه في حضن أحد الكتب مجبرًا نفسه على التّفكير، لكنه توقف محبطًا: إلامَ يؤدي هذا؟ ما الفائدة من التّعليم؟ ما الهدف من الثراء، إذا كان عليك أن تفقد كل شيء، أن تترك كل شيء؟

حتى يكون للنشاط وللعلم معنى، لا بد من أن يكون للحياة معنى أيضًا، ومهما اجتهد ذهنه في التفكير أو تكرّس قلبه للدعاء، فلا يمكنهما استيعاب ذلك المعنى، لكنه جاء لوحده إلى بيير.

فجأة أصبح للحياة معنى.

ماذا إذًا؟

وهو يبحث عن أصل تلك الابتسامة التي بداخله، رأى الفم نصف المفتوح، الذي كان فمه يحترق شوقًا للمسه.

***

في الأوقات العادية، لم يكن ذلك السحر الصامت ليستمر، ولكن في هذه المرحلة من سن المراهقة، نحب الحب ذاته، نراه في كل العيون، وفي القلب ذلك الحماس المتّقد والمتقلب يأخذه من واحدة لأخرى، ولا شيء يجبره على أن يتوقف.

إنه في بداية الدرب، لكن الرحلة قصيرة، وعلينا أن نسرع.

تسارعت وتيرة نبضات قلب المراهق حين أدرك تأخيره.

المدن الكبيرة التي تبدو مثل أفواه البراكين يتموج دخانها بأشكال مغرية، وتؤوي أرواحًا جديدةً وأجسادًا غضة، يذهلك هذا العدد الكبير من الشباب والفتيات الذين يحترمون الحب، يحافظون على عذرية حواسهم حتى الوصول للزواج.

حتى في أوساط النخبة، حيث فضول العقل يشتعل مبكرًا، نرى كمًا من الجهل يختبئ وراء ميول الشباب الاجتماعي والطلاب الذين يدّعون معرفة كل شيء، بينما هم لا يفقهون شيئًا!

في قلب مدينة باريس هناك مناطق بكر، وحدائق للأديرة الصغيرة ومصادر نقية، تتيح المدينة للأدب أن يمارس خياناته بحقها، فتجد من يتحدث باسمها هو أكثر الناس تلوثا ودنسًا، ونعرف جيدًا أن الاحترام الإنساني المزيف قد يمنع أصحاب القلوب الصافية من إعلان براءتهم، لم يكن بيير قد عرف الحب بعد، لكنه استسلم له بكل جوارحه عند أول نداء للحب.

وما أضاف سحرًا إلى أفكاره، أن هذا الحب قد ولد في خضمّ الموت، في تلك اللحظة من الإثارة، حين شعرا بخطر القنابل فوق رأسيهما، وأحزن قلبيهما عند الرؤية الدامية لذلك الرجل المشوه، كانت أصابعهما تبحث عن بعضها، كلاهما قرأ الآخر مع كل الخوف الذي طغى على المشهد، جمال الألفة التي يمنحها صديق مجهول، ضغطة أصابع سريعة، وكأن يد بيير المرتجفة تقول ليد لوس: "استندي عليّ!"، بينما تجيبه يدها بأمومة عذبة تتجاوز الخوف: "صغيري الحبيب".

لم يذُر بينهما أي حديث من هذا القبيل، إنما كانت نسماتٍ تتغلغل في الروح فتنعشها، هي أبلغ من الكلام وتخفي الأفكار كرداء من أوراق الأشجار.

كان بيير يترك هذه الدندنة تهدهده، فإنها مثل رنين دبور ذهبي يحلق في ظلام الوجود الفاتح، انتعش بيير بهذا الخمول الذي خدره، فصار القلب المنعزل عن العالم

والعاري يحلم بحرارة عش.

في تلك الفترة، كانت باريس تحصي أنقاضها وتمسد على جراحها بعد الغارات الأخيرة، في الوقت الذي كان نباح الانتقام يزداد على صفحات الصحف التي كانت حبيسة زرائب الكلاب.

وفق جريدة "الرجل الذي يضع القيود"(4) كان النظام قد أعلن حربًا على الفرنسيين، ففتح باب العقوبات على الخونة، فصار مشهد المخلوق البائس الذي يدافع عن أفكاره وعن رأسه المطلوبة من قبل المدعي العام، مسألة ترفيهية بالنسبة لنخبة باريس التي لم تُشبع نهمها للمسرح بعد أربع سنوات من الحرب وعشرة ملايين جثة سقطت خلف الكواليس.

لكن المراهق بيير كان منهمكًا بشكل حصري في التفكير بصورة الضيفة الغامضة التي جاءت لزيارته، كانت رؤى الحب منقوشة في أعماق ذهنه، لكن حدودها تتلاشى. لم يكن بيير قادرًا على استعادة ملامح ولون العيون، أو خطوط الشفاه، لا يرى إلا العاطفة في داخله.

كل محاولاته لتوضيح الصورة التي في ذهنه عنها لم تنجح إلا في زيادة تشويه الصورة، ولم ينجح في العثور على تلك الفتاة حتى عندما انطلق للبحث عنها في شوارع باريس.

في كل مكان يذهب إليه يتخيل أنه يراها، يراها في ابتسامة، في المشهد الخلفي لشابة بيضاء، في لمعان عينين، فينبض الدم في قلبه.

لم يكن هناك أي تشابه بين تلك الرؤى العابرة وبين الصورة الحقيقية التي يبحث عنها، ويعتقد أنه أحبها، ألم يحبها؟ بالتأكيد قد أحبها، ولذلك كان يراها في كل مكان

وبكل الأشكال، فهي الابتسامات كلها، النور كله، الحياة كلها، وأية محاولة لتأطير تلك الصورة ستنقص من كمالها، ولكننا نحتاج إلى تلك الحدود حتى نتمكن من احتضان المعشوق وامتلاكه.

ألن يراها مرة أخرى؟ لقد عرف أنها موجودة، إنها موجودة، وهي الملاذ.

إنها الميناء في الإعصار، المنارة ليلاً، نجم القطب.

الحب. يا أيها الحب، اسهر علينا ساعة الموت!

***

على رصيف نهر السين، بجانب معهد فرنسا، مر بيير، ألقى نظرة عابرة على معروضات أحد باعة الكتب النادرين الذين تمسكوا بأماكنهم، أسفل درجات جسر الفنون -Pont des Arts- حوَّل بيير نظره للأعلى.

فجأةً، لمح من كان ينتظرها تنزل الدرجات كظبيةٍ صغيرة، وهي تتأبط لوحة.

بلحظةٍ واحدة ودون أدنى تفكير، اندفع نحوها.

في صعوده إليها، ونزولها الدرجات، استقرت نظرات كل منهما على الآخر للمرة الأولى وتداخلت، توقف أمامها محمرًا من الخجل، ما فاجأه أنها احمرت خجلاً هي أيضًا عندما رأته محمرًا، وقبل أن يتمكن من التقاط أنفاسه، كانت الخطوات الشريرة قد تجاوزته فعلاً.

حينما استجمع قواه والتفت نحوها، كان فستانها قد اختفى في أحد الأروقة المطلة على نهر السين.

لم يحاول اللحاق بها، اتكأ على درابزين الجسر، رأى انعكاس نظراته على صفحة النهر المتدفقة، أصبح لقلبه الآن ما يقتات عليه إلى حين (ياالهم من مراهقين أغبياء وطيبين!).

بعد أسبوعٍ من ذلك الحدث، كان بيير يتنقل في حديقة لوكسمبورغ التي ملأتها أشعة الشمس الذهبية عذوبةً، فبراير يشع دفئًا هذا العام!

تنتاب بيير أحلام يقظة، لا يدرك إن كان قد حلم بما يراه الآن، أم أنه يرى في الواقع ما قد حلم به، في حالة من خمول طاغٍ، من سعادة مبهمة، من حزن وحنان يغمرانه كما دفء الشمس، يبتسم وهو سائر، عيناه شاردتان، شفتاه تغمغمان بفوضى كلمات لا معنى لها، ترددان أغنية.

نظر إلى الرمال، انتابه شعور بأن ابتسامة عبرت للتو، مثل رفِ من الحمام.

التفت، ورأى أنه اجتاز تلك الفتاة.

بلحظةٍ، ودون أن تتوقف عن السير، التفتت هي الأخرى مبتسمة حين انتبهت له، بدون تردد جاء إليها، بيدين ممتدتين وبدافع شابٍ ساذج تنتظره شابةٌ ساذجة، ومن دون أن يعتذر، وبعيدًا عن شعور الإحراج، فقد بدا لهما أنهما يواصلان اللقاء الذي بدأ من قبل.

قال لها:

- ها أنت تسخرين مني، ولك الحق في ذلك.

- أنا لا أسخر، (جاء صوتها مثل خطاها، مفعمًا بالحيوية والنشاط)، أنت تضحك

وحدك، وأنا ابتسمت لرؤيتك بهذه الحال.

- هل كنتُ أضحك حقًا؟

- وتضحك الآن أيضًا.

- الآن أعرف سبب ضحكي.

لم تسأله عمّا يعنيه بكلامه، سارا معًا تغمرهما السعادة.

قالت له:

- الشمس الصغيرة جميلة.

- الربيع عاد من جديد.

- هل كنت ترسل ابتسامتك الصغيرة منذ قليل للربيع؟

- ليس له وحده، ربما لك أيضًا.

- كذاب صغير، ولد شرير، أنت لا تعرفني أصلاً.

- يمكننا القول إننا سبق وتقابلنا بالفعل، لكن لا أعرف كم مرة حدث ذلك.

- ثلاثة، إن حسبنا هذه المرة.

- آه! تتذكرين إذًا! أترين أن معرفتنا قديمة؟

- فلنتحدث!

- بالطبع، هذا كل ما أريده، أوه.. لنجلس هناك! لحظة واحدة، أتريدين ذلك؟ الجو بديع بالقرب من الماء.

(كانا بالقرب من نافورة جالاتيه ، التي غطاها البناؤون بالمشمعات لعلها تحميها من القنابل)

- لا أستطيع، سأتأخر عن موعد الترام.

ما إن قالت هذا، حتى صرخ بأن لديها أكثر من خمس وعشرين دقيقة.

نعم، لكنها أرادت أن تشتري طعامها أولاً، من زاوية شارع راسين ، حيث يوجد "باتيه بان" لذيذ.

أخرج لها واحدًا من جيبه.

- ليس أفضل من هذا، ألا تريدينه؟

ضحكت مترددة، وضعه بيدها، ممسكًا إياها.

- سأكون سعيدًا بمجيئك، تعالي.. تعالي لنجلس.

قادها إلى المقعد الواقع في منتصف الطريق حول حوض النافورة.

- لدي أيضًا شيء آخر.

أخرج من جيبه لوحًا من الشوكولاتة.

- طماع! وماذا أيضًا؟

- هذا فقط، اعذريني لأنها ليست مغلفة.

- هاتها.. هاتها! نحن في زمن الحرب.

رآها وهي تقرمش.

قال بيير:

- إنها المرة الأولى التي أرى فيها أن للحرب فائدة.

- أوه! لا تتحدث عنها! إنها متعبة للغاية.

قال بيير في حماس:

- حسنًا، لن نتحدث عنها أبدًا.

فجأة، وقد خفّت حدة الهواء، قالت وهي تشير إلى العصافير التي تستحم على حافة الحوض:

- انظر إلى هذه العصافير التي تستحم.

- حسنًا، لكن في تلك الليلة (وهو يتابع أفكاره)، في ذاك المساء، في قطار المترو،

قولي، هل رأيتني؟

- بالتأكيد.

- لكنك لم تنظري إلى جهتي، بقيت تلتفتين إلى الجهة الأخرى كل الوقت، بالضبط كما تفعلين الآن.

تأمل طرف وجهها وهي تقضم الخبز وتنظر إلى الأمام بعيون خبيثة.

- انظري إلي قليلاً، إلامَ تنظرين هناك؟

لم تلتفت برأسها، أمسك يدها اليمنى، حيث القفازة الممزقة من طرف سبابتها.

- إلام تنظرين؟

- أنت الذي تشاهد قفازتي، أرجو ألا تمزقها أكثر!

كان قد أخذ يوسع الفتحة في القفازات دون قصد.

- أوه! عفوًا، لكن كيف تستطيعين الرؤية؟

لم تجب، لكنه رأى في جانب صورتها الهازئة، زاوية العين الضاحكة.

- آخ! ماكرة.

- بكل بساطة، كل الناس يفعلون هذا.

- - أنا لا أستطيع.

- جرب، احرف عينيك.

- لن أستطيع أبدًا، فمن أجل أن أرى بوضوح يجب أن أنظر مباشرة إلى الوجه، هكذا ببلاهة.

- لكن لا، ليست حماقة.

- أخيرًا! أرى عينيك.

نظرا إلى بعضهما، ضاحكين بعذوبة.

- ما اسمك؟

- لوس.

- كم هو لطيف، لطيف كهذا اليوم.

- وأنت؟

- بيير، اسم يستخدم كثيرًا.

- اسم الشجاع الذي يملك عيونًا فاتحة.

- مثل التي لي.

- بما يخص ذلك، نعم، عيناك فاتحتان.

- لأنهما تنظران إلى لوس.

- لوس! يجب أن تقول "آنسة".

- لا.

- لا؟

هز رأسه.

- أنت لست "آنسة"، أنت لوس، وأنا بيير.

أمسكا بأيدي بعضهما، وبدون أن ينظرا نحو بعضهما، كانت عيونهما تحلق في السماء الزرقاء الصافية بين فروع الأشجار العارية، صامتين. اختلطت أفكارهما المتدفقة من خلال أيديهما.

قالت:

- في ذاك المساء، كان كلانا خائفًا.

- نعم –قال– هذا صحيح.

لاحقًا ضحكا مما اعترف به كلاهما للآخر عن الأحلام التي كانت تراوده حينذاك.

سحبت يدها ونهضت فجأة، مصغية إلى تكات عقارب الساعة الكبيرة في الساحة.

- أوه! لم يعد لديّ متسع من الوقت.

سارا معًا بخطواتٍ متسارعة كتلك التي تخطوها فتيات باريس برفق ورشاقة، حتى لا نفكر في السرعة عندما ننظر إليهن.

- هل تمرين من هنا كثيرًا؟

- كل الأيام، لكن غالبًا أمشي على الرصيف الآخر عندما أعود من المتحف. ألقت نظرة على الحديقة، أشجار واتو(5).

نظر إلى اللوحة التي تحملها.

- أنتِ رسامة؟ سألها بيير.

- لا، هذه كلمة كبيرة، مجرد خربشات لموهبة مبتدئة.

- لماذا؟ للتسلية؟

- أوه! لا، من أجل الحصول على نقود.

- من أجل النقود!

- هذا سيء، أليس كذلك؟ أن تمتهن الفن من أجل النقود.

- الأغرب هو أن نحصل على النقود أصلا، خصوصًا إذا كان الشخص لا يعرف

الرسم.

- هذا هو السبب بالضبط، سأشرح لك في المرة المقبلة.

- مرة أخرى، عند النافورة، سنتناول وجبة أخرى.

- سنرى.. إن كان الطقس جيدًا.

- لكن ستأتين مبكرًا، أليس كذلك؟ أخبريني لوس.

وصلا إلى المحطة، وقفزت إلى رصيف الترام الذي بدأ بالإقلاع.

- أجيبي، قولي، يا "نور"(6) ، يا صغيرة.

لم تجب، لكن عندما انطلق الترام رمشت بجفنيها "نعم"، وعلى فمها قرأ بيير بدون أن تتكلم:

- نعم، بيير.

كلاهما استغرق في التفكير خلال ذهابهما:

-يا للعجب، كم يبدو الناس سعداء هذا المساء.

ابتسما، لا يريدان أن يفهما ما حدث، ما يعرفانه فقط أنه حدث فعلاً، وأنه كان ملكًا لهما ليحافظا عليه معًا، ماذا؟ لا شيء، فقط أننا أصبحنا أغنياء هذه الليلة.

عند عودتهما، نظر كل منهما إلى نفسه في المرآة، كما ينظر المرء إلى صديق، بعين حنون، قالا لبعضهما البعض: "هاتان العينان كانتا تنظران إليك".

ذهب كل منهما إلى الفراش مبكرًا، مرهقين.

لماذا إذًا؟ إنه التعب اللذيذ.

فكر كل منهما أثناء تعرّيه:

أجمل ما في اليوم، أنه سيكون له غد.

***

الغد...

سيصعب على هؤلاء الذين سيأتون بعدنا استعادة كل ما توحيه تلك الكلمة من يأس صامت وضجر بلا نهاية، فقد مضت أربع سنوات منذ بداية الحرب، يا له من تعب! كم مرة خابت آمال الناس! مئات من الأيام تتوالى، والغد كما الأمس كما اليوم، بلا هدف إلا الانتظار، مجرد انتظارٍ للعدم، تمر الأعوام كما يمر نهر "ستيكس"(7) حول عالم الأموات، بمياهه السوداء اللزجة وأمواجها المعتمة التي تبدو كأنها توقفت عن السيل، والغد؟ مات الغد.

لكن في قلبي الطفلين العاشقين كان الغد قد قام، في الغد جلسا مرة أخرى بالقرب من النافورة، وأيضًا في الأيام التالية، تساعدهما روعة الطقس على تكرار تلك اللقاءات القصيرة التي تصبح أطول يومًا بعد يوم، وفي جعبة كل منهما وجبة خفيفة ليستمتع بمشاركتها مع الآخر، ها هو بيير ينتظر أمام باب المتحف راغبًا في

رؤية أعمال لوس، وقامت لوس بشرحها له دون أي تردد، بالرغم من أنها بالنسبة لها ما هي إلا نسخ مصغرة عن اللوحات الشهيرة ونسخ لأجزاء وأنصاف تماثيل أصلية، قد لا تبدو أعمالها سيئة عند الوهلة الأولى، إلا أنها كانت متواضعة للغاية، بها بعض اللمسات اللطيفة تتوافق مع الأصل، ولكن بالإضافة إليها، كانت هناك الأخطاء الخاصة بالمبتدئين والتي لا تثبت جهل الفنان فحسب، بل أيضًا عدم اهتمامه، الأمر الذي قد يجعلنا نفكر..

- كفى! هيا نرى ما بعده.

ذكرت لوس أسماء اللوحات المنسوخة.

كان بيير يعرف هذه اللوحات جيدًا، وقد عبرت ملامح وجهه عن خيبة أمله، وبدورها أدركت لوس عدم رضاه، لكنها استمرت في الشرح بمهارة حتى تريه كل شيء.

- أنظر أيضًا إلى هذا! أف!

كانا أمام أسوأ أعمالها، خبأت لوس ابتسامتها الساخرة وكأنها تسخر من نفسها ومن بيير أيضًا، غير أنها لم تُبدِ أي شعور بخيبة الأمل، أغلق بيير شفتيه كي لا يتلفظ بأية كلمة، لكن الوضع تجاوز حدود التحمل، فعندما أشارت لوس إلى نسخة من إحدى لوحات رفائيل من فلورنسا، قال لها بيير:

- لكن هذه ليست الألوان الصحيحة.

أجابت لوس:

- ولو كانت صحيحة، لكان الأمر مذهلا! فلم أرَ النسخة الأصلية، بل رأيت صورتها

فحسب.

- ألم يعترض أحد من قبل؟

- من؟ الزبائن؟ كذلك هم لم يكونوا هناك ليروا الأصل، ثم إنهم إن رأوها فعلاً، فلا ينظرون إليها عن كثب، وفي ألوان الأحمر، الأخضر أو الأزرق لا يرون إلا النار، في بعض الأحيان يكون لدي نموذج بالألوان، ولكني أغير الألوان، إليك ملاك "موريللو" مثالاً عما أتحدث عنه.

- أتجدين أن هذا أفضل؟

- لا، لكنه يسليني، ثم إنه أكثر ملاءمة، وبالنهاية، لا يهمني شيء إلا أن يباع عملي.

وبعد هذا التعبير المتبجح، توقفت، واستعاد بيير ألوان وجهه الطبيعية ثم انفجر ضاحكًا.

- هل هي أكثر قبحًا مما ظننتَ؟

بصوتٍ حزين سألها:

- لكن لماذا تفعلين مثل هذه الأشياء؟

نظرت إلى وجهه المذهول وبابتسامة أم طيبة وهي تفكر:

- هذا البرجوازي الصغير العزيز، الذي عاش حياة سهلة ولا يتصور أننا يمكن أن نقدم تنازلات من أجل....

سألها مرة أخرى:

- لماذا؟ أخبريني لماذا؟

كان خجولاً، كما لو أنه كان الرسام الفاشل عينه، أيها الفتى الطيب، ودث لوس لو تقبله على جبينه برصانة، لكنها أجابت بعذوبة:

- من أجل العيش.

ظل مدهوشًا، فلم يخطر بباله أن يفكر في ذلك.

وقالت بنبرة لا مبالية ساخرة:

- الحياة معقدة؛ أولاً يجب أن نأكل، وأن نأكل كل يوم، فإن تناولنا العشاء في المساء، يجب أن نفكر من جديد في اليوم التالي، وعلينا أن نرتدي الملابس؛ ملابس تغطي كل أجزاء الجسم، الرأس، اليدين، القدمين، إننا نحتاج إلى ملابس كثيرة! ثم علينا أن ندفع ثمن كل شيء، الحياة تعني أن تدفع على الدوام.

وللمرة الأولى، أدرك ما لم يدركه بسبب قصر نظر حبه: الفراغات في معطفها المصنوع من الفرو، والأحذية المستهلكة، وآثار العيش الصعب، التي تنسيك إياها الأناقة الطبيعية لأية فتاةٍ باريسية، وغرق قلبه بالحزن.

- آه! ألا أستطيع أن أساعدك؟

تراجعت نحو الخلف قليلاً محمرة الوجنتين، وبانزعاجٍ قالت له:

- لا، لا، أنا لا أطلب منك أبدًا، أنا لست بحاجة...

- ولكن سأكون سعيدًا جدًا!

- لا، نحن لن نتحدث عن هذا فيما بعد، لربما لن نبقى أصدقاء.

- إذا نحن الآن أصدقاء؟

- نعم، إن كنت لا تزال تريد ذلك رغم كل ما رأيته من فظائع قبل قليل.

- بالتأكيد، إنها ليست خطيئتك!

- ولكنك انزعجت من رؤيتها، أليس كذلك؟

- آه.. نعم.

ضحكت مبتهجة، فقال لها:

- أتضحكين يا مشاكسة؟!

- لست مشاكسة، أنت لا تفهم.

- لماذا تضحكين إذًا؟

- لن أخبرك.

فكرت: "يا حبي! كم أنت لطيف لأنك تشعر بالأسف لأنني صنعت أشياء قبيحة".

قالت:

- أنت إنسان طيب، شكرا لك.

نظر إليها بعيون مندهشة، فقالت وهي تربت على يده:

- لا تحاول أن تفهم، فلنتحدث عن شيء آخر.

- حسنًا، قولي لي بكلمة أخرى، أود أن أعرف، قولي لي –لا تشعري بالحرج– هل تمرين بظروف صعبة؟

- لا، لا، لقد قلت ذلك منذ لحظة، بالطبع مررت من قبل بظروف سيئة، لكن الآن الوضع أفضل، وجدت أمي عملاً وتحصل على أجر جيد.

- هل تعمل والدتك؟

- نعم، في مصنع ذخائر، ونحصل على اثني عشر فرنكًا في اليوم، إنها ثروة.

- في مصنع! مصنع الحرب!

- نعم.

- لكنه أمر فظيع!

- يا سيدي نحن نأخذ ما يقدمونه لنا!

- لوس، ولكن إذا عرض هذا العمل عليك؟

- أنا كما ترى، إنني أشخبط.. ألم ترَ الآن أنني على حق في طريقة عملي!

- لكن إذا توجب عليك الحصول على النقود ولم تكن هناك طريقة أخرى سوى العمل في أحد تلك المصانع التي تصنع القذائف، فهل ستذهبين؟

- إذا كان لدي مجال، وليس هناك وسيلة أخرى؟ بالطبع، سوف أركض إلى هذا العمل.

- لوس! هل تفكرين في ما يصنعونه في تلك المصانع؟

- لا، أنا لا أفكر في ذلك.

- كل ما يؤذي، ويميت، ويمزق، ويحرق، ويعذب الكائنات الإنسانية مثلك ومثلي....

وضعت يدها على فمه، لتجبره على السكوت.

- أعرف، أنا أعرف كل ذلك، لكني لا أريد التفكير فيه.

- لا تريدين أن تفكري في ذلك؟

- لا.

وأردفت بعد لحظة:

- علينا أن نعيش، إذا فكرنا لا يمكننا أن نعيش، أنا أريد أن أعيش، أريد أن أعيش، إذا أجبرت على القيام بذلك مقابل أن أحيا، هل سأعذب نفسي بهذه الأفكار؟ لا

يهمني، أنا لا أريد ذلك السوء، لكنه ليس خطئي، ما أريده ليس سيئًا.

- ماذا تريدين؟

- أريد أن أعيش قبل كل شيء.

- هل تحبين الحياة؟

- بالطبع، هل أنا مخطئة؟

- أوه! لا، حياتك، وجودك، شيء جميل للغاية!

- وأنت، ألا تحب الحياة؟

- لم أكن أحبها، حتى...

- حتى ماذا؟

السؤال لا يحتاج لإجابة، فكلاهما يعرفها.

تابع بيير أفكاره:

- قلتِ "قبل كل شيء، أريد أن أعيش قبل كل شيء"، وماذا بعد ذلك؟ ماذا تريدين؟

- لا أعرف.

- أتمنى لو عرفت...

- أنت تسيء الأدب.

- نعم جدًا.

- يزعجني أن أخبرك...

- اهمسي لي في أذني، فلن يسمعنا أحد.

تبتسم:

- أود... (ترددت) أود القليل من السعادة.

كانا قريبين من بعضهما البعض، واصلت:

- هل أطلب الكثير؟ قيل لي في كثير من الأحيان إن هذه الأمنية أنانية، وأحيانًا أقول لنفسي: ما الذي يحق لنا؟ عندما نرى كل هذا البؤس والمتاعب من حولنا، لا نجرؤ على المطالبة بحقنا، ولكن -ورغم كل شيء- القلب يطالب ويصرخ "نعم، أنا أستحق، يحق لي القليل من السعادة" قل لي بصراحة: هل هي أنانية؟ هل تجد أن هذا أمر شرير؟

تملكته شفقة لانهائية، قلبها يصرخ، صرخة صغيرة يائسة وساذجة هزت أعماق روحه، صعدت الدموع إلى عينيه.

جنبًا إلى جنب على المقعد، يميلان نحو بعضهما، شعرا بحرارة أرجلهما، كان يرغب في الالتفات ليضمها بين ذراعيه، لكنه لم يجرؤ على التحرك خوفًا من ألا يتحكم

بمشاعره، حدقا باتجاه أقدامهما ساكنين، فجأة –وبسرعة كبيرة– بصوت منخفض متحمس، وكأنه لا يحرك شفتيه، قال:

يا جسدي الصغير العزيز! يا قلبي! أود أن أمسك قدميك الصغيرتين في يدي، أضعها على فمي، أود أن آكل جسدك كله.

من دون أية حركة، بسرعة شديدة وبصوت منخفض جدًا –مثله- قالت والعواطف تربكها:

- يا مجنون! مجنون أنت! اصمت! أرجوك.

مر رجلٌ عجوزٌ ببطءٍ أمامهما، شعرا بجسديهما يذوبان معًا بحنانٍ.

لم يعد أحد في الممر، إلا عصفور ذو ريش أشعث ينتفض في الرمل، والنافورة تقطر قطراتها المشعة، بشيء من الخجل، التفت وجهاهما نحو بعضهما، وحالما التقت نظراتهما، تقاربت الشفاه بخوف واستعجال وطمع، والتحمت، ثم تفرقت.

نهضت لوس من مكانها وذهبت، ثم نهض بيير بدوره وقالت له لوس:

- ابقَ.

لم يستطيعا النظر بعيون بعضهما، إلا أنه غمغم:

- لوس... ذلك النصيب الضئيل من السعادة... قولي لي.. أخيرًا وجدناه؟!

***

منعت ظروف الجو زائرَي نافورة العصافير من إكمال وجبتهما، حل الضباب ليحجب أشعة شمس فبراير، ولكنه لا يستطيع أن يسمع ما يحملانه في قلبيهما، فيفعل الجو كل ما يروق له: ليأتِ البرد أو الحرارة أو المطر أو الرياح أو الثلج أو الشمس! سيكون الجو جميلاً في جميع الحالات، بل سيكون أفضل، فالسعادة حينما تكون في بدايتها يصبح اليوم هو الأجمل من بين كل الأيام.

كان الضباب حجة جيدة لئلا يتفرقا، لجزء من اليوم، فخطر رؤيتهما يصبح أقل.

ذهب بيير صباحًا لينتظرها عند محطة الترام ويرافقها أثناء جولاتها في باريس، بمعطفه مرفوع الياقة، وكانت لوس ترتدي قلنسوة من الفرو ووشاحًا ملتفًا حول رقبتها حتى ذقنها وحجابًا مربوطًا حول الرأس فبرزت شفتاها مكورتين مكتنزتين، ولكن الحجاب الأفضل كان ذلك الضباب الرطب الذي يحرسهما، كان سميكًا بلون الرماد، وبلمسات من الأصفر الفوسفوري، ويجعل المرء لا يرى على بعد عشر خطوات، وكان يزيد كثافة في الشوارع القديمة على جوانب نهر "السين"، ضباب صديق، ينسحب إليه الحلم، ليتغطى بملاءات الجليد ويرتجف من المتعة! فكانا كالبذرة في قلب الفاكهة، كما اللهيب المغلق في فانوس صامت، أمسك بيير بذراعها الأيسر، وسارا بنفس الإيقاع، بخطواتٍ شبه متساوية، وإن كانت خطوات لوس أطول قليلًا، يزقزقان بصوت مكتوم ووجهاهما مقتربان من بعضهما، حتى رغب بيير لو قبّل تلك الشفتين المكورتين تحت الحجاب الصغير.

كانت لوس ذاهبة إلى بائع "الأنتيكات المزيفة" ليشتري منها "شخابيطها" أو كما تسميها "خضرواتها"، لم يرغبا في الاستعجال أثناء المشي، وبدون أي قصد- أو هكذا يدعيان- كان طريقهما يستغرق أطول فترة ممكنة، ويحسبان الضباب كسبب تأخرهما، في النهاية، عندما وصلا إلى الهدف، رغم محاولاتهما الكثيرة لعدم الوصول إليه، انتظرها بيير عند زاوية الشارع على بعد مسافة من المتجر، انتظر وقتًا طويلاً، وبرغم البرد القارس، والملل، شعر بلذة الانتظار، فقط لأنه هنا من أجلها.

حين خرجت أخيرًا مبتسمةً مسرعة خشية أن يكون قد تجمد من البرد، تلوح في عينيها فرحة النجاح، شعر كأنه هو من ربح، غير أنها في معظم الحالات كانت تعود خاوية الوفاض، وقد كانت معتادة على أنه يتوجب عليها المجيء مرتين أو ثلاثة حتى تتمكن من الحصول عليها، فالسعادة الحقيقية هي أن التاجر لم يرفض رفضًا جافًا ما في جعبتها.

اليوم مثلاً، كانت قد رسمت صورة مصغرة لرجل طيب قد فارق الحياة، ولم تره لوس من قبل، وقد غضب أهله منها لأنها لم تضع اللون الدقيق لشعره وعينيه، فكان عليها أن تعيد ما رسمته مجددًا، تتملكها دومًا رغبة في رؤية الجانب الهزلي الساخر من أعمالها، فضحكت بقوة، غير أن بيير لم يضحك بل صمت ساخطًا.

- حمقى! حمقى! حمقى ثلاث مرات!

عندما أطلعته لوس على الصور التي يتوجب عليها إعادة نسخها بالألوان، شعر بالاحتقار ضد هؤلاء الحمقى المتجمدين بابتساماتهم المهيبة، بينما كانت لوس تلهو بغضبه المضحك، أن تجتهد عيون لوس في التأمل في هؤلاء الأفظاظ حتى تعيد رسم صورتهم، هذا بدا لبيير أمرًا مزريًا! بل يثير الاشمئزاز! العمل في نسخ اللوحات بالمتحف أفضل بكثير! ولكنه غير مضمون، فالمتاحف الأخيرة قد أغلقت والزبائن لم يعودوا مهتمين بشراء اللوحات، انتهى زمن رسومات العذراء والملائكة، ليحل مكانهم الجنود الشجعان، كان هناك واحد في كل عائلة، سواء أكان ميتًا أم حيًا، وفي غالب الأحيان ميتٌ، تريد عائلته أن تجعل وجهه خالدًا، والعائلات الأغنى تطلب صورة بالألوان، وتدفع ثمنًا جيدًا، وهو الأمر الذي كان يغدو نادرًا يومًا بعد يوم، ومن ثم كان على الرسام أن ينفذ الأوامر من دون تردد، بالإضافة إلى ذلك، لم يبقَ حينئذ سوى أعمال تكبير الصور بأسعار مهينة.

واتضح أنه لم يعد هناك سبب لمجيئها إلى باريس، فالمتحف لم يعد يطلب أي عمل منها، كل ما عليها هو الذهاب إلى متجر اللوحات لاستلام الطلبات وإحضارها

بعد يومين أو ثلاثة، فالعمل يمكن أن ينجز في منزلها، الأمر الذي لم يكن في مصلحة الطفلين العاشقين، واستمرا بالتجول في الشوارع دون أن يتمكنا من الوصول إلى قرار من أجل العودة إلى محطة القطار.

عندما شعرا بالإنهاك والضباب قد اخترق جسديهما، دخلا كنيسة، وهناك، وبحصافة، جلسا في زاوية المعبد، تحدثا بصوت منخفض عن الأشياء الصغيرة التافهة التي تحدث في حياتهما، ناظرين إلى النوافذ الزجاجية الملونة، من وقت لآخر عم الصمت أرجاء المكان، وتحررت أرواحهما من عناء الكلام (لم يكن الشعور بنطق الكلمات هو الذي يثير اهتمامهما، إنما نفَس الحياة الذي يأتي معها، وكأن كلماتهما مجسات ترعش كلما تلامست)، كان هناك حوار أعظم وأعمق يجري في روحيهما.

الصور الخيالية على الزجاج الملون، ظلال أعمدة الكنيسة، دندنة تراتيل تمتزج مع حلمهما، تستدعي أحزان الحياة التي يريدان نسيانها، والحنين إلى المطلق الذي يواسيهما، بالرغم من أن الساعة قاربت الحادية عشرة، إلا أن أضواء الغسق الهادئة ملأت المكان، كزيت مقدس في إبريق زجاجي، من الأعلى، من بعيد جدًا، من إحدى النوافذ الزجاجية الملونة أتى نور غريب، بريق أرجواني داكن، وبقعة حمراء على البقع البنفسجية الغامقة، وأطياف مبهمة محاطة بسواد الهيكل الحديدي، هناك، على جدار الليل العالي، دماء الأضواء نكأت الجراح.

فجأة، قالت لوس:

- هل يجب أن يأخذوك؟

فهم ماذا تعني في الحال؛ لأن عقله اتبع في صمت الفكرة المظلمة ذاتها.

- نعم، يجب ألا نتحدث عن ذلك.

- سؤال واحد فقط.. قل لي متى؟

- خلال ستة أشهر.

تنهدت.

- لا تفكري في ذلك أكثر، ما الفائدة؟

- نعم، ما الفائدة؟

استعادا تنفسهما، ليكظما هذه الفكرة، ثم وبشجاعة –أو ربما نقول على العكس تمامًا، بخوف؟ يعلم الله أين الشجاعة الحقيقية!- أجبرا نفسيهما على التحدث عن شيء آخر، مثل أنوار الشموع متراقصة اللهيب بين البخار، صوت الأرغن الذي يعزف بداية مقطع موسيقي، الشماس، كان لديهما الشغف للاستمتاع بالأشياء الصغيرة، ولم يكن للطفلين العاشقين المسكينين أية فكرة عن الهروب من القدر الذي سيفرّق بينهما، أو عن مقاومة الحرب، أو تحدي تيار أفكار الشعب، أو إزالة غطاء الكنيسة الذي يكبس عليهما كدرقة سلحفاة! الملاذ الوحيد هو النسيان، النسيان حتى الثانية الأخيرة، بالأمل ألّا تأتي تلك الثانية الأخيرة أبدًا، حتى ذلك الحين، لنكن سعداء.

عند خروجهما وهي تتابع حديثها، سحبها من ذراعها لإلقاء نظرة على فاترينة المتجر الذي مرا به للتو، متجر أحذية، رمق عيون لوس التي نظرت بشفقة إلى زوج من الأحذية الجلدية الجميلة العالية والتي لها ربطات، فأشار إليه:

- جميلة!

قالت:

- روعة!

ضحك من تعبيرها، وضحكت هي أيضًا.

- أليس مقاسها كبيرًا؟

- لا، إنه مقاسي بالضبط.

- حسنًا، وإن اشتريناه؟

شدت على ذراعه وسحبته إلى الأمام، لتمنع نفسهما من التأمل بالحذاء.

- لا بد أن نكون أغنياء –همهمت لحن الأغنية Dan(8)sons la Capucine - هذا ليس حالنا!

- لمَ لا؟ حتى سندريلا لبست الحذاء!

- في ذلك الوقت كانت الجنيات موجودات.

- في هذا الوقت، يوجد العشاق.

غنت:

- لا، لا، كلا، صديقي!

- لماذا، بما أننا أصدقاء؟

- هذا هو السبب بالضبط.

- لأننا أصدقاء؟

- نعم، لأنه لا يمكنني قبول هذا من صديق.

- من عدو، إذن؟

- من غريب، من التاجر الذي أتعامل معه على سبيل المثال، إذا كان يريد أن يدفع لي الحساب مقدمًا، ذاك البخيل!

- لكن يا لوس لي الحق في أن أطلب منك –إذا أردت- لوحة!

توقفت لتضحك.

- أنت؟ لوحة مني؟ يا صديقي المسكين، ماذا ستفعل بها؟ يكفيك صبرك لأنك شاهدت لوحاتي، أعلم أنها لوحات سيئة وستغص بها.

- ليست جميعها سيئة! البعض منها لطيف جدًا، وإن كانت على ذوقي؟

- قد تغير ذوقك منذ أمس!

- ألا يجوز التغيير؟

- لا، ليس عندما نكون أصدقاء.

- لوس، ارسمي لي صورتي!

- نعم؟ صورتك؟

- لكن طلبي جاد جدًا، أستحق ذلك مثل هؤلاء الحمقى.

ضغطت على ذراعه، بدون تفكير:

- عزيزي!

- ماذا قلت؟

- لم أقل شيئًا.

- سمعت الكلمة جيدًا.

- لذلك، احتفظ بها لنفسك!

- لا، أنا لن احتفظ بها، سأكررها لك، عزيزتي! عزيزتي! سترسمين صورتي، أليس كذلك؟ هل اتفقنا؟

- هل لديك صورة؟

- ليست معي.

- كيف تريدني أن أرسمك إذن؟ لا أستطيع أن أرسمك في الشارع.

- أخبرتني أنك وحدك في المنزل كل يوم تقريبًا.

- نعم، في الأيام التي تعمل فيها أمي في المصنع، لكنني لا أجرؤ....

- هل أنت خائفة من أن يرانا أحد؟

- لا، ليس كذلك، ليس لدينا جيران.

- إذن، ما الذي تخافين منه؟

لم تجب.

وصلا إلى ميدان مجاور لمحطة الترام، وعلى الرغم من وجود أشخاص آخرين حولهما ينتظرون، كان من الصعب رؤيتهما فقد واصل الضباب عزلهما عن محيطهما، حاولت لوس أن تتجنب النظر في عينيه، أخذ بيير يديها وقال لها بحنان:

- عزيزتي، لا تخافي.

نظرت إلى الأعلى ونظرا إلى بعضهما البعض، يالصدق عيونهما!

- أنا أثق. قالت.

وأغلقت عينيها، شعرت أنها تقدسه.

تفرقت أيديهما، فالترام كان على وشك الرحيل، استجوب بيير لوس عبر نظره، ثم سألها:

- أي يوم؟

أجابت:

- الأربعاء، تعال حوالي الساعة الثانية.

أثناء مغادرتها، ابتسمت ابتسامتها الماكرة، وهمست في أذنه:

- على فكرة، سوف تحضر لي صورتك، أنا لست ماهرة بما فيه الكفاية لأرسمك من دون صورة، أعلم أن لديك أكثر من صورة، يا كذاب، يا شريرا!

***

بعد مالاكوف تجد الشوارع متكسرة متقطعة ككل مناطق الريف غير المكتمل حيث تزدهر بين الأسوار الخشبية ألواح الأكواخ، السماء رمادية باهتة ترقد فوق أرض عديمة اللون يخفي الضباب جوانبها، والهواء بارد جدًا، لم يكن في المكان إلا ثلاثة منازل على الجانب نفسه من الشارع، ما يجعل الوصول أمرًا في غاية السهولة، منزلها هو المنزل الأخير في الصف، الذي لا يواجهه منزل آخر، به طابق واحد مع فناء صغير محاط بسور خشبي، وشجيرتين أو ثلاث أشجار ضئيلة، تتوضع بينها حديقة خضراوات، تحت الثلج.

لم يصدر بيير صوتًا عند دخوله، فقد خفف الثلج من وقع خطواته، كانت ستائر الطابق الأرضي تهتز، وعندما وصل إلى الباب، فُتِح الباب، وكانت لوس عند العتبة، في منتصف المدخل، تصافحا همسًا، تقدمته إلى الغرفة الأولى- غرفة الطعام- المكان الذي تعمل فيه، حمالة الرسم مثبتة بالقرب من النافذة، في البداية، لم يعرفا ماذا يقولان، لقد فكرا كثيرًا قبل هذا اللقاء، والجمل التي حضّراها من قبل لا تستطيع

العبور من الخيال إلى الواقع، فتحدثا بصوت منخفض، على الرغم من عدم وجود أحد في المنزل، ولكنه سبب جيد للصمت.

بقيا جالسين تفصلهما خطوات قليلة عن بعضهما البعض، ذراعا كل منهما متصلبة، حتى أنه لم يرخ ياقة معطفه، يتحدثان عن الطقس البارد ومواعيد الترام، ويشعران بالتعاسة من إحساسهما بالغباء.

بذلت لوس جهدها أخيرًا لتسأل بيير عما إذا كان قد أحضر صورة معه، وما إن أخرجها من جيبه حتى انتعشا، خلقت هذه الصور ذريعة للحديث بينهما، نحن لسنا وحدنا، هناك عيون تنظر إليك من دون أن تشعرك بالإزعاج،

خطرت على بال بيير فكرة جيدة -دون أي دافع خبيث- بأن يجلب جميع صوره، منذ سن الثالثة، في إحدى الصور يظهر مرتديًا تنورة صغيرة.

تضحك لوس باستمتاع، تعلق على الصورة ببعض الكلمات اللطيفة والكوميدية، هل هناك أي شيء أعذب للمرأة من رؤية صورة عزيز عليها عندما كان صغيرًا جدًا؟ هدهدته في الخيال، وهي تمنحه ثديها، تكاد تتخيل حتى أنها حملت به! ثم إنها ليست ساذجة، تعرف أن هذه حجة جيدة حتى تقول للطفل ما لا يمكن قوله للرجل، عندما سألها عن الصور التي تفضلها، قالت، دون تردد:

- صورة الطفل الصغير اللذيذ.

في الصورة يبدو الطفل بيير جادًا بالفعل، أكثر مما هو عليه الآن، بالطبع لو تجرأت لوس (وهي فعلت ذلك حقًا) على النظر إلى الطفل لتقارنه مع الرجل، لرأت في عيني الرجل تعبيرًا عن الاسترخاء والفرح الطفولي الذي لا نراه في عيني الطفل؛ لأن عيون الطفل، هذا البرجوازي الصغير المحبوس في قفص بلوري، تفتقر إلى الضوء، وأخيرًا قد حضر الضوء، أليس كذلك يا لوس؟

يطلب بدوره أن يرى صور لوس، تريه لوس صورة فتاة في سن السادسة تحمل كلبًا صغيرًا بين ذراعيها مع سجادة كبيرة، وعندما رأت لوس نفسها مجددًا أدركت – بمكر– أنها لم تكن تحب بقوة أقل من الآن، ولا حتى بأسلوب مختلف، كل ما كانت تملكه في قلبها منحته لبيير، ذلك الكلب ليس إلا صورة لبيير، فقد بدأت لوس في حبه منذ الأزل، دون أن تعرفه، وهي تنتظر مجيئه.

كما أرته صورة فتاة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر تثني رقبتها بإيقاع من الغنج وقليل من الدلال، لحسن الحظ كانت هناك، في زاوية شفتيها، ابتسامة صغيرة ماكرة، كأنها تقول:

- تعلم، أنا ألهو، ولا آخذ نفسي مأخذ الجد.

الآن، كانا قد نسيا إحراجهما تمامًا.

بدأت برسم لوحته، ولأنه ممنوع من الحركة والكلام من أجل تنفيذ اللوحة، أدارت لوس المحادثة وحدها، طبيعتها تخاف من الصمت، وكما يحصل للأشخاص الصادقين الذين يتحدثون معًا لبعض الوقت، سرعان ما باحت له بأسرار حياتها الخاصة مع أنها لم تكن تنوي ذلك، واندهشت من نفسها حينما بدأت تتكلم، ولم يكن ثمة مجال للتراجع، صمت بيير نفسه كان مثل منحدر يجذبها للكلام، تتحدث له عن طفولتها في الأقاليم، هي من إقليم توران، أمها من أسرة ميسورة الحال، من طبقة البرجوازية العريقة، وقعت في غرام مدرس خصوصي، ابن مزارع، رغم اعتراض العائلة البرجوازية على زواجهما، لكن العاشقين كانا مصرّين على خيارهما.

والفتاة كانت قد بلغت العمر القانوني الذي يسمح للمحكمة بدعوة عائلتها للحضور.

لكن العائلة تبرأت منها بسبب زواجها من رجل لا يناسب وضعهم الطبقي.

عاش الزوجان سنوات من الحب والفقر، أرهق العمل جسد الزوج وغلبه المرض، لكن الزوجة واجهت قدرها بشجاعة مما زاد أعباءها لتعويض غياب الزوج.

العائلة من جهتها بقيت على موقفها المقاطع للفتاة المتمردة بدافع كبريائها المجروحة، ورفضت أن تقدم لها أية مساعدة.

مات الزوج قبل اندلاع الحرب ببضعة أشهر، ولم تحاول المرأتان (الأم وابنتها) إعادة الاتصال بعائلة الأم.

كانت العائلة ستقبل محاولة الفتاة العودة، فيما لو تقدمت لها بالاعتذار، وكان اعتذارها سيُقبل كعودة عن خطأ ارتكبته الأم نتيجة سوء سلوكها، لكن المصالحة مع العائلة كان يمكن تأجيلها! (فلنأكل الحجارة بشغف أفضل من هذا الذل).

فوجئ بيير بقسوة قلوب هذين الوالدين البرجوازيين، فيما لم تجد لوس غرابة في الأمر..

- ألا تعتقد أن هناك الكثير من الناس من هذا القبيل؟ ليسوا أشرارًا، لا، أنا متأكدة من أن جدي وجدتي ليسا كذلك، لكنهما وجدا صعوبة في التراجع عن قرارهما واستمرا في المكابرة على الخطأ حتى لا يقولا لنا "عودا"، لقد أحسا بإهانة كرامتهما، واحترام الذات هو أهم ما لدى هؤلاء الناس، إنه من أقوى الدوافع لديهم، عندما يتعرضون للظلم، لا يشعرون بأن شخصًا واحدًا قد ظلمهم، بل يشعرون بالظلم في المطلق؛ الآخرون مخطئون، وهم على حق، ودون أي شرط.

- لا، ليسوا أشرارًا في الحقيقة، يفضلون تركك تلفظ أنفاسك الأخيرة بالقرب منهم، على نار هادئة، على اعترافهم بأنهم قد يكونون مخطئين في مواقفهم.

أه! إن والديّ ليسا الوحيدين بهذه السمات، هناك الكثيرون مثلهما.

قل، هل أنا مخطئة؟ أليسا كذلك؟

فكر بيير، وهو متأثر؛ لأنه كان يعتقد هذا:

- بل إنهم أشرار.

لمح في عيني الطفلة الصغيرة فقر القلب، القحط الذي تعيشه تلك الطبقة البرجوازية التي كان ينتمي إليها، أرض جرداء متملحة شربت تدريجيًا سوائل الحياة كلها ولم تُعِد إنتاجها، مثل تلك المناطق في آسيا التي غارت فيها الأنهار الغزيرة، قطرة قطرة من خلال الرمال الزجاجية.

حتى عندما يظن هؤلاء البرجوازيون أنهم يحبون أحدًا، فهم يحبونه كمن يحب أملاكه، إنهم يضحون به من أجل أنانيتهم وفخرهم العنيد وذكائهم الضيق والحادّ.

تأمل بيير في والديه وفي نفسه بحزن، صمت، ارتجت نوافذ الغرفة نتيجة ضربة مدفع بعيدة، قال بيير بمرارة، وهو يفكر في الأرواح المسكينة التي تسقط الآن:

- وذلك أيضًا من أعمالهم.

نعم.. إن نباح المدافع المبحوح هناك، والحرب الكونية، الكارثة الكبرى، تتحمل مسؤوليتها بنسبة كبرى تلك البرجوازية البغيضة محدودة الرؤى، ذات القلوب اليابسة وعديمة الإنسانية المعدومة، والآن (هذا هو العدل) لن يتوقف هذا الوحش المنفلت من أغلاله حتى يلتهم الإنسانية بأكملها.

قالت لوس:

- إنه عادل.

لأنها كانت تتبع رأي بيير، دون أن تشك فيه، انتفض بيير عند الإحساس بصدى المدافع وقال:

- نعم، إنه عادل، كل ما يحدث عادل، أصبح هذا العالم بالغ القدم، كان لا بد أن يموت، لا بد من موته الآن.

وكررت لوس بحزن، وهي تحني رأسها:

- نعم.

طفلان وقوران ينوءان بأثقال القدر، وعلى جباههما الفتية خطت الهموم تجاعيدها ورؤوسهما تغلي بتلك الأفكار المؤسفة! كان الظل يصعد إلى الغرفة، لم يكن الجو وافر الدفء، تجمدت يدا لوس، لقد تركت عملها الذي لم تتح الفرصة لبيير برؤيته.

ذهبا إلى النافذة يتأملان المساء الممتد على الحقول الحزينة والتلال المشجرة، شكلت الغابات البنفسجية نصف دائرة فوق في السماء الخضراء المغبرة بتراب ذهبي شاحب، كأن روح الرسام "بوڤي دي شوڤان" كانت تحوم في الهواء هناك.

كلمة بسيطة نطقتها لوس لتثبت أنها قادرة على قراءة ذلك التناسق السري، كاد بيير أن يندهش، أما لوس فلم يؤثر عليها الأمر، قالت إن المرء قادر على أن يشعر بما لا يستطيع التعبير عنه.

ليس ذنبها أنها غير موهوبة في الرسم، ربما كان ذلك نتيجة سوء فهم بعض

المبادئ الاقتصادية، فـ"لوس" لم تلتحق بمدرسة الفنون التشكيلية، الفقر هو ما دفعها إلى الرسم.

وما فائدة الرسم بلا حاجة إليه؟ ألم ير بيير أن جميع الذين يمارسون الفن يفعلون ذلك دون حاجة حقيقية، بل يفعلونه أو ربما لأنهم في البداية ظنوا أنهم في حاجة إلى الفن، وفيما لا يستطيعون الاعتراف بأنهم كانوا مخطئين؟

الفن وليد حاجة الإنسان إلى الإفصاح عن مشاعره، فقط عندما يعجز الإنسان عن كتمان مشاعره التي تفيض عن قدرته على الكتمان، لحظتئذ يولد الفنان الذي بداخله.. لكن لوس قالت إنها لا تملك مشاعر إلا لشخص واحد، ثم استمرت:

- بل، لشخصين.

(لأن بيير قد امتعض).

بدأت ألوان السماء الذهبية في الاسمرار، بدث السهول المقفرة مغطاة بقناع مؤسف، سأل بيير لوس إن كانت تشعر بالخوف في مثل هذه الخلوة.

- لا.

- وعندما تعودين إلى المنزل في وقت متأخر؟

- ليس هناك أي خطر. (9) لا يرتادون هذه المناطق، لهم عاداتهم، إنهم أيضًا برجوازيون، ولدينا جار هناك يجمع الأشياء القديمة ومعه كلب.

ثم إني لست خائفة، آه! ولا أفتخر بذلك! لا فضل لي في ذلك، لست شجاعة،

فقط لم تتح لي فرصة لمواجهة الخوف الحقيقي بعد، اليوم الذي سأراه فيه، ربما سأتصرف بجبن أكثر من النساء الأخريات.

هل نعرف بالفعل من نحن؟

قال بيير:

- أنا أعرف من أنتِ.

- نعم، إنه أسهل... أنا أيضًا أعرف من أنتَ، من الأسهل دائما معرفة الآخر.

كان برد المساء الرطب يتسرب من زجاج النوافذ المغلقة، ارتعش بيير ارتعاشًا خفيفًا، أحست لوس بتلك القشعريرة عندما وصلت إلى ظهره، قامت تحضر له فنجانًا من الشوكولاتة سخّنتها على مصباح كحولي، ثم تناولا طعامًا خفيفًا.

بأمومية، ألقت لوس بشالها على كتف بيير، تركها تفعل ذلك، وكأنه قط مستمتع بدفء القماش، ثم أعادهما حبل أفكارهما مرة أخرى إلى الحكاية التي توقفت لوس عن سردها.

قال بيير:

- أنت وأمك، لوحدكما، أنتما فقط، لا بد أن يكون بينكما ارتباط عميق، أليس كذلك؟

قالت لوس:

- نعم، كانت علاقتنا حميمة جدًا..

سأل بيير:

- كنتما؟

أجابت لوس، منزعجة من الكلمة التي خرجت منه فجأة:

- آه! ما زلنا كالعادة نحب بعضنا البعض!

لماذا كانت تقول له في كل مرة أكثر مما كانت ترغب أن تقوله؟ بالرغم من أنه لم يسأل المزيد، لم يتجرأ على طرح السؤال، ولكنها تعرف أن قلبه كان يسألها، إنه إحساس جميل أن تكشف أسرارك لأحد، خصوصًا إذا لم تتمكن من ذلك من قبل! صمت المنزل، الظل المراوغ في الغرفة، كل تلك العوامل حرّرت لسانها! فقالت:

- لا أحد يفهم ويرى ماذا حدث في السنوات الأربع الأخيرة، لقد تغير العالم كله.

- هل تقصدين أنك أنت، أو أمك، قد تغيرتما؟

كررت لوس:

- أقصد الجميع.

- بمَ تغيروا؟

- لا نستطيع أن نعرف ذلك، لكننا نشعر أن العلاقات بين الناس لم تعد كما كانت، العلاقات بين الناس الذين يعرفون بعضهم البعض، حتى داخل العائلات، فقدنا اليقين بالأشياء، في الصباح نتساءل: "ما الذي سأراه مساءً؟ وهل سأعترف به؟"

وكأننا على لوحة خشب تطفو على الماء، على وشك الانقلاب.

- ماذا حدث إذن؟

- لا أدري، قالت لوس، لا أستطيع أن أشرحه، ولكنه يحدث منذ بداية الحرب، هناك شيء ما في الأفق، الجميع قلقون، أولئك الذين كانوا لا يستطيعون التخلي بعضهم عن البعض في العائلات يتناثرون الآن في اتجاهات شتى، كل واحد يسير في اتجاهه الخاص كالسكران رافعًا أنفه إلى الأمام دون اكتراث بالآخرين.

- إلى أين، إذن؟

- لا أعرف، ولا هم –على ما أظن– يعرفون، يذهبون حيثما يدفعهم القدر والرغبة، النساء يجدن عشاقًا، الرجال ينسون زوجاتهم، والناس الطيبون، هؤلاء الذين كانوا يبدون هادئين ومنظمين، عاديين! في كل مكان نسمع أحاديث عن تفكك الروابط الأسرية، الأمر نفسه يحدث بين الوالدين والأولاد، أمي ...

توفقت ثم استأنفت الحديث:

- أمي تعيش حياتها.

توقفت مرة أخرى:

- آه، إنه أمر طبيعي! إنها ما زالت في عز شبابها، أمي المسكينة لم تستمتع بالكثير من السعادة، لم تفرغ بعد مخزون الحب لديها. إنها تستحق أن تسترد حياتها.

سأل بيير:

- هل تريد أن تتزوج مرة أخرى؟

هزت لوس رأسها: ليس بالتحديد.

لم يتجرأ بيير على الإصرار في السؤال.

- إنها تحبني كثيرًا ودومًا، لكن الأمر لم يعد كما كان سابقًا، يمكنها أن تتركني الآن وتنصرف إلى حياتها، مسكينة أمي! قد تندم للغاية لو عرفت أن محبتها لي لم تعد في قلبها كما كانت، المحبة الأولى! لن تقبله أبدًا، كم هي غريبة الحياة!

رسمت على وجهها ابتسامة حلوة، حزينة، متشائمة.

وضع بيير يده بحنان على يدها المتكئة على الطاولة، وأضاف، ويده تحضن يدها:

- نحن كائنات تعيسة.

وأضافت لوس، بعد قليل:

- ونحن، كم نحن في سكينة! الآخرون يعانون الحمى، الحرب، المصانع، يلهثون خلف العمل، العيش، المتعة.

قال بيير:

- نعم، الوقت ضيق..

قالت لوس:

- وهذا سبب إضافي لعدم الركض خلف الأشياء! الوصول إلى النهاية أسرع مما نتصور، لنسر بخطوات صغيرة.

قال بيير:

- ولكن الوقت يمضي، فلنتمسك به جيدًا.

- إني متمسكة به، قالت لوس وهي ممسكة بيد بيير.

هكذا كانا يتحدثان معًا، على التوالي، بحنان، بجدية، كصديقين حميمين. لكنهما حريصان أن تبقى الطاولة بينهما كحدّ فاصل.

فجأة فطنا إلى أن الليل قد حلّ في الغرفة، انتفض بيير بسرعة البرق، لم تفعل لوس شيئًا لإيقافه.

لقد انتهى ذلك الوقت القصير، الخوف الآن هو مما سيأتي لاحقًا.

ودّعا بعضهما بالمشاعر ذاتها، أن تقدم على فعلٍ مكرهًا، بالصوت الهامس المخنوق ذاته الذي تحدثا به عند وصول بيير..

على عتبة الباب، بالكاد تجرأت اليدان على المصافحة، لكن بعد إغلاق الباب، وبينما كان بيير على وشك مغادرة حديقة المنزل، التفت إلى نافذة الطابق الأرضي، وفي آخر انعكاس لضوء الغسق النحاسي على الزجاج رأى طيف لوس، التي كانت تتأمله بوجه يفيض بالمحبة، عاد إلى النافذة ووضع شفتيه على البلور وكذلك فعلت لوس، تبادلا قبلة حميمة عبر حاجز زجاجي بارد، ثم انسحبت لوس إلى ظلام الغرفة، وأسدلت الستارة..

مضى أسبوعان دون أن يعرفا شيئًا عما يحدث في الخارج.

في باريس كان من الممكن أن يُلقى القبض على أي شخص، ثم يُتهم، بقمة القسوة.

كانت ألمانيا تستطيع أن تعقد اتفاقيات ثم تلغيها، الحكومات تستطيع أن تكذب، الصحافة تشتم، والجيوش تقتل.

لكنهما لم يقرآ الصحف، كانا يعلمان أن هناك حربًا تدور في مكان ما حولهما، وأن وباء الحمى النمشية والأنفلوانزا ينتشر.

كل هذا لا يعني شيئًا لهما، لم يضيعا وقتًا في التأمل فيه..

استعادت الحرب نفسها تلك الليلة، كانا قد ذهبا إلى الفراش، (استنفذا كل ما لديهما من طاقات في تلك الأيام، فما أن يأتي المساء حتى يكونا منهكين) سمعا الإنذار، كل منهما في الحي الذي يسكنه، رفضا أن يقوما من السرير، دس كل منهما رأسه في الوسادة، تحت الملاءة، مثلما يفعل طفل أثناء العاصفة، ليس خوفًا من العاصفة، بل رغبةً في الحلم (كانا على يقين بأنه لن يصيبهما أي أذى).

لوس –وهي تصغي إلى صخب الهوى في عمق الليل– تقول في نفسها:

- ليتني استطعت أن أصغي إلى العاصفة وأنا في حضنه!

أما بيير فكان يسد أذنيه، لن يدع شيئًا يفسد أفكاره! إنه مصرٌ أن يعيد العزف على بيانو الذاكرة لنغمة اليوم الذي مضى، بخط الساعات الرخيم، منذ الدقيقة الأولى التي دخل فيها منزل لوس، بأدق نبرات صوتها وحركاتها، والصور التي خطفها نظره بسرعة –صورة ظل تحت الجفن، موجة من العواطف تمر تحت الجلد، مثل رعشة

على سطح الماء، ابتسامة تُرسم على الشفتين، مثل شعاع، وراحة يدها المتكئة، النائمة على النعومة العارية في يديه الممتدتين- تلك النثرات الصغيرة التي تحاول أن تجمع خيال الحب السحري في عناق فريد.

لم يسمح للفوضى الخارجية أن تتسلل إلى روحه، كان العالم الخارجي بالنسبة له بمثابة زائر غير مرغوب فيه، والحرب؟ أعلم... أعلم، هل وصلث؟ لتنتظر إذًا!

انتظرث الحرب عند الباب في صبر، لكنها كانت تعرف أن دورها قادم.

بيير يعرفه أيضًا، لذلك لم يخجل من أنانيته.

كانت موجة الموت ستنتزعه، لم يكن مدينًا له بأي شيء مقدمًا، بأي شيء، فليعد الموت في موعده! وليبقَ صامتًا حتى يحين أوانه، آه! وحتى ذلك الحين لم يكن يرغب في إضاعة تلك الأوقات الحلوة، كل ثانية كانت بمثابة حبة ذهب، وبيير مثل البخيل الذي يتحسس كنزه، إنه لي، ملكي أنا، لا أريد أن يفسد أحد سلامي الروحي، أو يلمس حبي! إنه لي، حتى تدق الساعة.

ومتى ستدق؟

- ربما لن تدق أبدًا!

هل ستحدث معجزة؟

- لمَ لا؟

في الانتظار، كان نهر الساعات والأيام يتدفق، عند كل منحدر يقترب هدير الماء المنهمر.

بيير ولوس متمددان في زورقهما يستمعان، لكنهما لم يعودا خائفين، حتى ذلك الصوت الغليظ، الذي يشبه نوتة أرغن خفيضة، كان يهدهد حلمهما العاطفي.

حين نصبح على حافة الهاوية، سنغمض أعيننا، ونضم بعضنا في حضن أقوى، وكل شيء سينتهي بضربة واحدة، كانت الهاوية توفر لنا متاعب التفكير عن الحياة القادمة، عما يمكن أن يحدث بعد، عن مستقبل لا مفر منه؛ لأن لوس كانت قد تنبأت بالعوائق التي سيواجهها بيير فيما لو تقدم للزواج منها، بيير بدوره كان يشك في هذا الأمر، لكن شكوكه لم تكن بوضوح تنبؤات لوس اليقينية، فهو ليس ميالاً إلى الوضوح القطعي مثل لوس.

لا ننظر بعيدًا هكذا! كانت الحياة بعد الهاوية مثل "الحياة الأخرى" التي يتحدثون عنها في الكنيسة.

يقولون إننا سنلتقي هناك بعد الموت، لكنهم ليسوا متأكدين.

هناك شيء واحد مؤكد؛ الحاضر، حاضرنا، فلنسكب فيه كل ما نملكه من خلود، دون أن نحسب حسابًا لأي شيء!

كان اهتمام لوس بالأخبار أقل من بيير، لم تكن أخبار الحرب تثير فضولها، إنها بالنسبة للوس مظهر آخر من مظاهر البؤس الكثيرة التي تشكل نسيج الحياة الاجتماعية، ولا يستغربها سوى من يحتمي بعزلة عن الحقائق العارية.

لوس، الفتاة الصغيرة التي دخلت معترك الحياة مبكرًا، وجربت الكفاح من أجل لقمة العيش – أعطنا خبزنا كفاف يومنا، إن الله لا يعطيه دون مقابل! ـ تكشف لصديقها البرجوازي أسرار الحرب الفتاكة التي تخيم دون رحمة على حياة البؤساء، ولا سيما النساء الفقيرات، تحت راية السلام الكاذبة، لكن الفتاة لم تستفض في

الحديث خوفًا من أن تسبب لصديقها المزيد من الأحزان، فهي عندما ترى مدى تأثير حكاياتها عليه، تشعر بالحنان يغلبها مثل معظم النساء، إنها متصالحة مع الواقع ولا تشعر بالاشمئزاز الجسدي أو الأخلاقي تجاه بعض متاعب الحياة وذلها، كما هو حال صديقها الشاب.

ليس فيها أي صفة من صفات الرفض والتمرد، ولديها القدرة على التأقلم مع أسوأ الظروف، مثل القدرة على تقبل القيام بمهام مثيرة للاشمئزاز دون أي شعور بالغبن أو القرف مثلاً، وتنتهي منها في منتهى الهدوء والطهارة دون أن تتلوث، لكنها لم تعد قادرة على فعل ذلك اليوم؛ لأنها منذ أن تعرفت على بيير وأحبته، حدث ما يمكن أن نسميه بالعدوى، لقد انتقلت إليها حساسيته العالية وميوله في الذوق والاشمئزاز، لكن طبيعتها الأساسية كانت مختلفة، طبعها هادئ وضحوك، ليست متشائمة على الإطلاق، لا يروق لها الشجن ولا رؤية الحياة من برج عاجي دون الخوض فيها، إن الحياة كما هي، فلنأخذها كما هي! كان من الممكن أن تكون أسوأ!

أحداث الحياة التي عرفتها لوس دائمًا على أنها متذبذبة، في بحثها عن الحيل، وخاصة منذ بدأت الحرب، هذه الأحداث علّمت لوس أن لا تبالي بالغد، وبالإضافة إلى ذلك، لم تكن تلك الفتاة الفرنسية الصغيرة الحرة تبالي قط بما سيحدث في الآخرة، لقد كانت تكتفي بالحياة الراهنة، تراها لوس جميلة.

لكن اعتقادها ذلك كان متعلقًا بخيط رفيع تكفي قوة قليلة حتى ينقطع، إذًا لا داعي للتفكير فيما سيحدث غدًا، يا أحبائي، اشربوا الوقت الذي يسيل أمامكم ويبللكم! أما بالنسبة لما سيحدث بعده، فيا قلبي دع نفسك مع التيار! فلا خيار أمامنا.. فلنحب بعضنا البعض، أليس هذا لذيذًا؟ كانت لوس تعي أن ليس لديهما الكثير من الوقت، وأن حياتها أيضًا لم تكن لتستمر طويلًا.

لم تكن تشبه قط ذلك الفتى الصغير الذي يحبها وهي تحبه، ذلك الفتى المتحمس والمضطرب، المرح والحزين، الذي يستمتع ويعاني طيلة الوقت بمشاعر مبالغ فيها،

ينهمك ويهيج بحماس دائمًا، ذلك الشاب الذي كانت لوس تعزه، لا سيما لأنه لا يشبهها قط، لكنهما متفقان اتفاقًا ضمنيًا بعدم رؤية المستقبل: لوس، لأنها غير مبالية بمرور الزمن، كالنهير الذي يجري ويغني، وبيير، لأنه ينفي ذلك المستقبل بحماس من يهوي في عمق هاوية الزمن الحاضر، ولا يريد الخروج منها.

الأخ الكبير، فيليب، عاد في إجازة لبضعة أيام، منذ الليلة الأولى أدرك أن هناك شيئًا مختلفًا داخل العائلة، ما هو؟ لم يستطع تحديده، لكنه كان مستاءً من ذلك التغيير.

للروح مجسات تدرك الأشياء قبل أن يحس بها الوعي، والمجسات الأقوى هي مجسات تقدير الذات، هذه المجسات كانت مستنفرة لدى فيليب، تبحث حولها وتُصاب بالصدمة حين تشعر أن هناك شيئًا ناقصًا في اللوحة، أين ذهب أولئك الأحبة الذين يستقبلونه بالإجلال المعتاد؟!

أين الجمهور المنصت الذي كان يروي له حكاياته بكل تفاصيلها؟!

ووالداه اللذان يحيطان به، بإعجابهما الحنون، وأخوه الصغير؟ قف هنا! إنه هو، نعم هو، هو الغائب.

بل هو حاضر، لكنه غير متأثر بحضور أخيه الكبير، لم يسأله كالعادة عن أسراره، تلك الأسرار التي كان الأخ الكبير يستمتع بأن يتمنع عن الإفشاء بها.

كم هو تعيس ذلك الغرور!

كان فيليب قد اعتاد على مواجهة الأسئلة الساخنة التي يطرحها عليه أخوه الصغير بضجر ساخرًا سعيًا لحماية أخيه.

الآن هو مصدوم أمام صمت أخيه وعدم طرح الأسئلة، حاول أن يثيره، أصبح ثرثارًا أكثر وينظر إلى بيير ليجعله يشعر أن حديثه موجّه إليه هو تحديدًا.

قبل ذلك كان بيير ينتفض فرحًا حين يتوجه فيليب إليه بالحديث، يتلقف المنديل الذي يرميه فيليب إليه، ويشارك في الحديث، لكنه الآن يتركه ليلتقط منديله بنفسه، يتحدث مطولاً كما يريد دون أي تفاعل.

انزعج فيليب، فجرب أن يثير أخاه بالسخرية، لكن النتيجة كانت استمرار النبرة اللامبالية ذاتها من بيير بدلاً من أن يضطرب ويغير تعامله مع فيليب.

حاول فيليب أن يناقشه في الموضوع، انفعل، طال خطابه، لكنه أيقن سريعًا أنه يخاطب نفسه، كان بيير ينظر إليه وكأنه يقول له:

- تفضل، يا صديقي العزيز! إن أعجبك ذلك! استمر! إني أسمعك.

وابتسامة مستفزة مرسومة على وجهه الصغير! لقد انقلبت الأدوار.

سكت فيليب مصدومًا، تمعن بتركيز أكثر في أخيه الصغير الذي لم يعد يهتم به، كم قد تغيرتَ يا أخي! لم ينتبه والداه لهذا التغيير؛ لأنهما يريانه كل يوم، لكن عيني فيليب النافذتين، وبالتالي الحسودتين، لم تجدا ذلك التعبير المعتاد في وجه أخيه الصغير، رغم غيابه لشهور عدة.

كان بيير يبدو سعيدًا، خاملاً، دائخًا، غير مبالٍ بالأشخاص، أو مدرك للأشياء، كأنه يطفو في جو من الأحلام الشهوانية كمرفه، بعث لدى فيليب إحساسًا بأنه لم يعد له مكان ولا أهمية في ذهن أخيه الصغير.

ولأن خبرة فيليب في تحليل ذاته لا تقل عن خبرته في تحليل الآخرين، سرعان ما

أدرك بغيظه تجاه تغير أخيه، وقرر أن يسخر من هذا الإحساس.

ترك غروره جانبًا وأخذ يهتم ببيير حتى يكشف سر تحوله، لقد أراد أن يحث أخاه على الإفصاح عن أسراره، ولكنه أسلوب غير معتاد لديه، وبالأحرى لم يبدُ بيير بحاجة إلى البوح بأي سر.

بهيئته غير المبالية والماكرة كان بيير ينظر إلى فيليب الذي يبذل جهدًا كبيرًا من أجل رمي خشبة إنقاذ لأخيه من الغرق، بينما بيير يضع يديه في جيبيه ويبتسم، وروحه غائبة عن المكان، يصفّر أغنية طريفة، ويجيب إجابات مبهمة دون أن يركز في الأسئلة، ثم ينطلق عائدًا إلى أشيائه الخاصة، اختفى، لم يبقَ منه سوى انعكاسه في الماء الذي يتسرب بين الأصابع، وفيليب بمثابة عاشق محتقَر، أدرك قيمة ذلك القلب الذي ضيّعه، وشعر بفضول لمعرفة ألغازه.

صدفة اكتشف فيليب مفتاح لغز أخيه أثناء عودته إلى المنزل في المساء، كان يسير في بولفار مونبارناس، لمح ببيير ولوس في الظلام، خشي أن يكونا قد لاحظاه، ولكنهما مضيا غير مكترثين قط بما حولهما.

كان ببيير يتأبط ذراع لوس، وأصابعهما متشابكة، يسيران بخطوات صغيرة بذلك الحنان الطاغي والنهم، مثل ذلك الذي يربط كيوبيد وسايكي في الفراش الزوجي في اللوحات الجدارية المرسومة في فيلا فارنيزينا بروما، تتعانق نظراتهما فيذوبان في جسد واحد، مثل شمعة.

استند فيليب إلى شجرة وتأملهما وهما يسيران ويتوقفان، ثم يستمران في السير، ويختفيان في جنح الليل.

فاض شعور الرأفة لهذين الطفلين في قلبه، فردد في نفسه:

- ضحيث بحياتي، فليكن! ولكنه أمر غير منصف أن تؤخذ أيضًا حياتهما! ليتني أستطيع دفع ثمن سعادتهما!

في اليوم التالي، رغم اللامبالاة المهذبة التي أبداها، لاحظ بيير آثارًا غير واضحة لنبرة فيليب الحنون تجاهه، اكتشف ذلك بعد تأمل عميق.

رأى بيير عند استيقاظه عيني أخيه الطيبتين كما لم يرهما من قبل.

كان فيليب يتأمله بتمعن واضح، حتى شعر بيير أن تلك النظرة تفحصه، فسارع حتى يتفادى مواجهة ما تقوله عينا أخيه، لكن فيليب ابتسم، قام، ووضع يده على كتف أخيه ودعاه للتنزه معًا.

لم يستطع بيير تفويت فرصة سماع سر جديد، ذهبا معًا إلى دولة لوكسمبورغ المجاورة، ترك الأخ الكبير يده مسنودة على كتف أخيه الأصغر، معتزًا بإعادة الارتباط بينهما، لقد حلت عقد لسانهما وانطلقا بحماس في الحديث معًا عن موضوعات الروح وعن قراءاتهما وتأملاتهما عن الإنسان وعن تجاربهما الجديدة، كل هذا ما عدا الموضوع الذي كانا يفكران فيه، ذلك الاتفاق الصامت، سرورهما لحميميتهما المستعادة بسرهما الجديد.

أثناء ثرثرتهما، تساءل بيير:

- هل يعرف؟ ولكن، كيف عرف؟

كان فيليب ينظر إليه مبتسمًا وهو يتحدث، ثم توقف بيير عن الحديث وسط الجملة.

- ما بك؟

- لا شيء.. أنظر إليك فأشعر بالسعادة.

شبكا أيديهما، ثم استأنف فيليب الحديث وقال:

- هل أنت سعيد؟

دون أن ينطق، أومأ بيير برأسه.

- عندك حق، أيها الصغير، إن السعادة شيء جميل، خذ نصيبي منها.

تجنب بيير الإشارة إلى قرار ضم دفعة بيير إلى صفوف الجيش الذي يوشك على أن يدخل حيز التنفيذ، حتى لا يُقلِق أخاه.

لكنه، يوم مغادرته، لم يستطع أن يخفي قلقه لرؤية أخيه الأصغر معرضًا قريبًا إلى تلك الاختبارات التي خبرها جيدًا.

بالكاد مر ظل على جبين الشاب العاشق، فقطب حاجبيه قليلاً، طرفت عيناه وكأنه يطرد رؤيا مزعجة بعيدًا عنه، ثم قال:

- كفى ! الأمر متروك للزمن، والله أعلم؟

أجاب فيليب.

- بل نعلم، وجيدًا.

إزاء إصرار فيليب، قال بيير:

- كل ما أعرفه هو أنني، عندما سأحضر إلى هناك، لن أقتل.

ابتسم له فيليب ابتسامة حزينة، دون أن يعارضه؛ لأنه يدرك جيدًا ما تفعله سطوة الحشود الهمجية العمياء على الأرواح الضعيفة وإرادتها.

عاد شهر مارس فأصبح النهار أطول وعاد معه تغريد العصافير.

ولكن مع مرور الأيام، تصاعد لهيب الحرب المشؤوم.

كان الجو محمومًا في انتظار الربيع والفاجعة، والناس يسمعون الدوي الوحشي يتفاقم في مواجهات أسلحة ملايين الأعداء المتأهبين في الخنادق للهجوم كفيضان عارم، مثل مدّ عالٍ على جزيرة "إيل دي فرانس" وصحن الكنيسة في "لا سيتيه".

كان صدى ذلك الصخب المخيف يسبق النكبة؛ ضجيج خرافي من الغازات المسمومة ينتشر في الجو، وقيل إنه من المتوقع هبوط ذلك السم على كل الأقاليم حتى يدمر كل شيء، مثله مثل السحابة الغازية الخانقة التي تدفقت من جبل مونت بيليه، وأخيرًا، زيارات طائرات "الجوتاه" بقنابلها، التي أصبحت أقرب فأقرب، واستطاعت أن تحافظ ببراعة على توتر مدينة باريس.

استمر بيير ولوس في تجاهل كل ما كان يحيط بهما، ولكن تلك الحمى التي كانا يتنفسانها دون وعي، في الجو المثقل بالتهديدات، أشعل لهبها الرغبة الكامنة في جسديهما الشابين.

على مدى ثلاثة أعوام نشرت الحرب شعورًا بالحرية الأخلاقية في أرواح أوروبا، يتسرب إلى القلوب الأكثر صفاء.

هذان الطفلان، لم يتبعا أية عقيدة دينية، لكنهما في حماية رقة قلبيهما وحشمتهما الفطرية فقط قررا -بصمت- أن يمنح كل منهما نفسه للآخر، قبل أن تفرق بينهما قسوة البشر العمياء.

لم يكونا قد تحدثا في ذلك القرار الصامت حتى ذلك الحين، لكنهما اعترفا به ذلك المساء.

مرة أو مرتين في الأسبوع كانت أم لوس تظل في عملها لوردية الليل.

في تلك الليالي، كانت لوس تبيت في باريس بمنزل صديقة حتى لا تبقى بمفردها في الحي المهجور، لم يكن يراقبها أحد، فكان العاشقان الشابان يستغلان هذه الفسحات من الحرية حتى يقضيا المساء معًا، وأحيانًا كانا يتناولان عشاءً متواضعًا في مطعم صغير.

عند انتهاء العشاء، في ذلك المساء في منتصف مارس، سمعا جرس إنذار القصف، التجآ إلى أقرب ملجأ وكأنهما يهربان من زخة ماطرة، واستمتعا لبعض اللحظات بالتأمل في رفاق مصيرهما المفاجئين.

وبما أن الخطر كان يبدو لهما بعيدًا أومستبعدًا، ودون أن يتم إعلان نهاية حالة الطوارئ، استأنف بيير ولوس السير، وهما يثرثران في سرور؛ لأنهما لا يريدان الذهاب إلى المنزل في وقت متأخر.

سلكا شارعًا قديمًا داكنًا ضيقًا بالقرب من "سان سولبيس"، كانا قد تجاوزا للتو عربة حنطور بالقرب من مدخل رئيسي، كان سائقها وحصانها نائمين، أصبح بيير ولوس على بعد عشرين خطوة من الحنطور، على الرصيف المقابل له، عندما ارتجف كل شيء حولهما: ومضة حمراء، دوي رعد، وابل من القرميد أنتزعت من الأسقف ومن زجاج النوافذ المتهشم.

عند تجويف منزل مطل على منعطف حاد في الشارع، التصقا بالجدار، وتشابك جسداهما في احتضان، في ضوء الانفجار، رأى في عينيها الحب والرعب، ثم – عندما عاد الظلام –قالت لوس باسترحام:

- لا.. لا أريد أن يحدث هذا الآن!

حينئذ شعر بيير على شفتيه بطعم شفتيها وأسنانها العاشقة.

بقيا هناك خافقين في سواد الطريق، على مسافة بضع خطوات، بين أنقاض الحنطور المحطم.

حضر بعض الرجال، خارجين من منازلهم، أخرجوا السائق المحتضر من الحنطور، ومروا بالقرب من بيير ولوس، حاملين ذلك المسكين الذي ينزف دمه قطرة قطرة.

بقي لوس وبيير متجمدين كصخرتين في مكانهما، متعانقين بشدة، وعندما عادا إلى الوعي شعرا وكأن جسديهما عاريان في حميمية حضنهما.

فكّا أيديهما وشفاههما المتلاصقة، وكأنها جذور تشرب من سوائل معشوقها.

كانا يرتعشان، انتاب لوس رعب شديد فقالت:

- لنعد إلى المنزل.

وسحبت بيير معها.

- لوس، لن تتركيني أغادر هذه الحياة قبل أن...

أمسكت لوس بذراع بيير، كانت تلك الفكرة أسوأ من الموت.

قالت:

- يا إلهي!

قالا معًا:

- يا حبي!

فتوقفا مرة أخرى.

قال بيير:

- متى سأصبح لك؟

لم يتجرأ أن يسألها "متى ستصبحين لي؟".

أدركت لوس ذلك وتأثرت، ثم قالت:

- قريبًا، يا عشقي! لا داعي للاستعجال، لا محالة من أني أرغب في ذلك أكثر منك، لنبقَ هنا لمزيد من الوقت. إنه شيء جميل! لنبقَ هنا هذا الشهر، حتى النهاية.

سأل بيير:

- حتى عيد الفصح؟

في ذلك العام كان من المتوقع أن يحل عيد القيامة في اليوم الأخير من مارس.

- نعم، عيد القيامة.

قال بيير:

- آه! قبل القيامة لا بد أن يأتي الموت.

قالت لوس وهي تسد فمه بفمها:

- ششش!

ثم تفرقا وقال بيير:

- الليلة، ليلة خطوبتنا.

فسارا في الظلام، متكئين على بعضهما، وبكيا بحنان.

تحت قدميهما كانت الأرضية تطقطق طقطقة الزجاج المحطم، والبلاط ينزف.

كان الموت والليل يتلاشيان حول حبهما، ولكن فوق رأسيهما كان ما يشبه دائرة سحرية، أعلى المساحة ما بين طرفي الشارع الضيق، كانت تشبه فوهة مدفئة في لب السماء، حيث ينبض قلب نجمة.

أخيرًا! عادت أنغام النواقيس وبريق الأنوار وضجيج الشوارع! وعاد الهواء خاليًا من الأعداء.

وتنفست باريس، فالموت قد هرب.

ها قد وصلا إلى عشية أحد السعف، ظلا يلتقيان كل يوم ويقضيان معًا ساعات وساعات، ولم يعودا يحاولان أن يختبآ، لم يكن عليهم تسوية أي حساب مع العالم، ولا يربطهما به إلا خيوط رقيقة أوشكت على الانكسار!

قبل ذلك بيومين بدأ الهجوم الألماني الكبير.

على مساحة مئة كيلومتر، تدفقت الموجة، الكثير من الانفجارات هزت المدينة: انفجار مصنع "لا كورنوف" هزّ باريس بقوة زلزال، وأصوات الإنذار المستمرة كانت تكسر النوم وتحرق الأعصاب.

في ذلك الصباح، يوم السبت، بعد ليلة مضطربة، كل هؤلاء الذين لم تغمض لهم عين إلا في وقت متأخر، استيقظوا عقب دوي المدفع الغامض الذي ضرب من بعيد، بعد إقليم "لاسوم"، وكأنه في كوكب آخر، وأطلق الموت بتتالٍ رهيب.

أثناء الضربات الأولى، والتي أفترض أن سببها عودة طائرات "الجوتاه"، التجأ الناس إلى الكهوف، ولكن عندما أصبح الخطر مستمرًا، تحول إلى عادة وتأقلمت الحياة معها، ربما شعر الناس بإغراء ذلك الإحساس، حين يتشاركون الشعور بالخطر، بشرط ألا يكون ذلك الخطر شديدًا وماحقًا، بالأحرى كان الجو بديعًا، ومن المؤسف أن يدفن الناس أنفسهم وهم على قيد الحياة.

قبل الظهر كان كل الناس خارج المنازل، الشوارع والحدائق وشرفات المقاهي تتسم بجو احتفالي في ذلك العصر المشمس والمبهج، عندما قرر بيير ولوس الذهاب بعيدًا عن الزحام، إلى غابة "شاڤيل".

منذ عشرة أيام كانا يعيشان هدوءًا حميمًا، كان في قلبيهما سكون عميق، ولكن أعصابهما كانت ترتعش وكأنهما على جزيرة صغيرة حولها تيار جامح مائج، وكأن دوار الرؤية والسماع بما حولهما يسحبهما.

ولكن، حينما تنزل الجفون، والأيادي تسد الآذان، وتغلق الأبواب، في عمق الأرواح فجأة يحل السكون، سكون باهر، مثل يوم صيفي هادئ ممتلئ بسرور غير مرئي، مثل عصفور مختبئ يغني أغنية سلسة ومنعشة، مثل غدير ماء.

يا للسرور! يا لهذا المغني الساحر، تغريدة فرحة! إني أعرف جيدًا جدًا أنه إذا فتحت فتحة صغيرة بين جفنيّ، أو توقفت إصبعي عن الضغط على أذني، سيدخلني زبَد التيار وضجيجه.

يا لها من أسوار هشة! كلما اكتشفنا هشاشتها يزداد ذلك السرور؛ لأنني أعرف أنه في خطر.

حتى السكون والصمت يظهران وجهًا مولعًا!

عندما وصل بيير ولوس إلى الغابة أمسك أحدهما بيد الآخر، كانت أول أيام الربيع كنبيذ معتق يصعد إلى الرأس، والشمس الفتية تثملهما بعصير كرومها الصافي، يطفو النور على أشجار الغابة المجردة من أوراقها وعبر الأغصان العارية، وعين السماء الزرقاء تسحر العقل وتخدره، بالكاد حاولا تبادل الكلام، فكان اللسان يرفض إتمام أية جملة يبدأ في نطقها، وكانت أرجلهما مسترخية وتسير على مضض، تحت الشمس وفي صمت الغابة، غنيا، جذبتهما الأرض ليستلقيا في طريقهما، يستسلمان لهذا الدولاب الكوني الكبير، صعدا إلى منحدر الطريق، ودخلا بين مجموعة من الشجيرات واستلقيا على الأوراق المتساقطة، حيث ازدهرت أزهار البنفسج، وامتزجت تغريدات العصافير المبكرة بحمحمة المدافع ونواقيس القرى التي تعلن حلول العيد.

كان الهواء المشرق يهتز في أمل وإيمان وحب وموت، وبالرغم من العزلة، كان العاشقان يتحدثان في صوت منخفض، كان قلباهما مرهقين، ومن ماذا؟ من السعادة أم من الألم؟ لم يستطيعا الإجابة، بل كانا منغمسين في الحلم، كانت لوس مستلقية بذراعيها وجسدها ممدد، لا تتحرك، عيناها مفتوحتان، مركزتان، تحدقان في السماء، وكانت تشعر بمعاناة مخفية تصعد داخلها، ومنذ الصباح –لكي لا تفسد فرحة اليوم– حاولت أن تبعد ذلك الشعور، وضع بيير رأسه على ركبتي لوس، في جوف تنورتها بين رجليها، وكطفل نائم بوجهه احتمى في دفء حِجرها، ولوس –دون أن تنطق– كانت تداعب أذني حبيبها، وعينيه، وأنفه، وشفتيه، يا لهما من يدين عزيزتين روحانيتين، تبدوان وكأن في أطراف أصابعهما شفاه صغيرة! وبيير، مثل لوحة مفاتيح ذكية، كان يدرك المشاعر التي تدور في روح صديقته من الأمواج الصغيرة التي تجري تحت أصابعها، ويتنبأ بتنهدها قبل أن تتنهد، أحنت لوس ظهرها إلى الأمام، فوق بيير، وبنفس مكتوم وصوت منخفض قالت في أنين:

- آه، بيير!

نظر بيير إليها، مصدومًا.

- آه، بيير! ماذا نكون؟ ماذا يريدون منا؟ وما الذي نريده نحن؟ ماذا يحدث بيننا؟ هذا المدفع، هذه العصافير، هذه الحرب، هذا الحب، هذه الأيادي، هذه الأجسام، هذه العيون، أين أنا؟ وماذا أكون؟

لم يكن بيير قد رأى من قبل لوس في تلك الحالة من التشوش، فأراد أن يحتضنها، ولكنها أبعدته، قائلة:

- لا! لا!

ثم أخفت وجهها بين يديها، وأكبت بوجها ويديها على الحشيش.

قال بيير، مفجوعًا وهو يتضرع إليها:

- لوس!

وضع رأسه بالقرب من رأسها، وكرر:

- لوس! ماذا بك؟ هل ارتكبت أي خطأ؟

رفعت لوس رأسها وأجابت:

- لا!

رأى بيير دموعًا في عينيها.

- هل تشعرين بالغم؟

- نعم.

- لماذا؟

- لست أدري.

- قولي لي.

قال لوس:

- آه.. أشعر بالعار.

- لماذا؟

- لكل شيء.

ثم سكتت.

منذ الصباح كانت تطاردها رؤيا حزينة قاسية ومخزية: أمها قد جنت بسبب السم الذي تخمر في أجواء المصانع المختلطة، مصادر الفجور والموت، تلك الصهاريج من البشر، ففقدت أم لوس كل السيطرة على تصرفاتها، في المنزل، أحدثت مشهدًا مرعبًا من الغيرة ضد عشيقها، دون أن تبالي بحضور لوس وسماعها لكل شيء، فاكتشفت لوس أن أمها حامل.

وكان هذا الخبر لطخة لوثت ضميرها، والحب في المطلق، وحبها لبيير، لذلك، عندما تقرب بيير منها، أبعدته: كانت تشعر بالعار تجاه نفسها وتجاه بيير، العار تجاه بيير؟ مسكين بيير.

بقي هناك ذليلا، لا يجرؤ على الحراك.

انتاب الندم لوس، فابتسمت بين دموعها، ثم أسندت رأسها إلى ركبتي بيير وقالت:

- دوري!

ما زال بيير مضطربًا، يمسح شعرها، كما نفعل عندما نداعب قطة، ثم همس:

- لوس، ماذا حدث؟ قولي لي!

أجابت:

- لا شيء، فقط شاهدت أشياء حزينة.

كان يحترم أسرارها احترامًا كبيرًا يمنعه من الإصرار على كشفها، ولكن بعد لحظة، استأنفت لوس الحديث:

- آه! هناك لحظات.. نشعر فيها بالعار لطبيعتنا الإنسانية!

انتفض بيير وقال:

- نعم.

وبعد صمت، انحنى إلى الأمام وقال في صوت خافت جدًا:

- سامحيني!

انتفضت لوس بحماس وارتمت على عنق بيير وهي تردد:

- سامحني!

فالتقت شفاههما.

كان الطفلان في حاجة إلى المواساة المتبادلة، ودون أن ينطقا، فكرا:

- لحسن حظنا سنموت! أبشع قدر هو أن نصبح مثل هؤلاء الرجال الذين يفتخرون برجولتهم وبقدرتهم على التدمير والإذلال.

بشفتيه يمس شفتيها، ورموشه تلامس رموشها، ألقيا نظرتيهما في عيني بعضهما البعض، بشعور من الشفقة الرقيقة، ودون أن يسأما من هذا الشعور الإلهي، وهو أسمى أنواع الحب.

في النهاية انتزعا نفسيهما من التأمل، وبعينين استعادتا الهدوء، رأت لوس من جديد ضياء السماء الناعم والأشجار التي تضج بالحياة، ونسمات الأزهار، فقالت:

- يا له من جمال!

ثم أعقبت:

- لماذا الأشياء بهذا الجمال؟ ونحن مساكين وقبيحون وسيئون!

(إلا أنت، يا حبيبي، إلا أنت!)

ثم نظرت إلى بيير مرة أخرى:

- أف! مالي وللآخرين؟!

ثم انفجرت ضاحكة، بكل ما في الحب من جنون، ونهضت فجأة وجرت إلى الغابة وصاحت:

- امسكني!

فلعبا مثل طفلين طوال ما تبقى من اليوم، وعندما تعبا عادا -بخطوات صغيرة- إلى الساحة في وسط الغابة التي بدت مثل سلة فاضت بشرر المغيب، كان كل ما يتذوقانه يبدو لهما جديدًا، فهما روح واحدة في قلبين وجسدين في واحد.

كانوا خمسة أصدقاء في نفس العمر، مجتمعين في بيت أحدهم، خمسة رفاق صف قد جمعهم نوع من تطابق عقلي وبعض الأفكار المنتقاة، بعيدًا عن الآخرين، وبالرغم من ذلك ليس بينهم اثنان يفكران بنفس الطريقة، تحت الإجماع المزعوم لأربعين مليون فرنسي، هناك أربعون مليون عقل يفكر كل واحد فيهم بطريقته، تشبه عقلية فرنسا أرضها، دولة مكونة من ملكيات خاصة صغيرة، ومن مزرعة لأخرى، عبر السياجات، حاول الأصدقاء تبادل أفكارهم، ولكن في الحقيقة، كان كل واحد منهم يؤكد على أفكاره الخاصة بلهجة أكثر إلحاحًا، فعليهم أن يكونوا جميعًا ليبراليين، أو جميعهم جمهوريين، أو كلهم ضد ردود أفعال المفكرين والمجتمع، أو ضد العودة الى الوراء.

كان "جاك سيه" أكثرهم حماسًا للحرب، كان هذا اليهودي الشاب قد تبنى كل أهواء روح فرنسا، في كل أنحاء أوروبا كان أقرباؤه اليهود يتبنون مثله القضية والأفكار الخاصة بوطنهم المختار، حتى لو كان عندهم ميول إلى الإفراط فيما يتعلق بكل ما يتبنونه.

ذلك الشاب الوسيم ذو الصوت المتحمس والنظرة المولعة والملامح المتناسقة التي تبدو كأنها رُسمت بوساطة رسام، كان يصر على إثبات معتقداته بطريقة جازمة من غير داع، وعنيفة، إذا عارضه أحد، بالنسبة له كان الأمر مثل حملة تقودها الأنظمة الديموقراطية من أجل تحرير الشعوب والتخلص من الحرب، أربع سنوات من المذابح الإنسانية لم تكفِ لتقنعه، كان مثل هؤلاء الذين لا يقبلون تكذيب الوقائع، وكانت له عزة نفس مزدوجة؛ عزة نفس مخفية تخص العرق الذي ينتمي إليه والذي يريد أن يعيد تأهيله، وعزة نفسه الشخصية التي تصر على إثبات حقه، وكان جاك

يريد إثبات حقه لا سيما لأنه ليس على يقين بأنه في الحق، كانت مثاليته الصريحة تحجب غرائزه المتطلبة التي ظلت مكبوتة لوقت أطول من اللازم، وحاجته إلى القيام بأفعال ومغامرات، وهي حاجة لا يختلف وضوحها عن وضوح ميوله تجاه المثالية.

"أنطوان نوديه" كان أيضًا من أنصار الحرب؛ لأنه لا يستطيع أن يفعل غير ذلك، هذا البرجوازي البدين، الشاب، الوديع والرقيق، ذو الخدين الورديتين والنفس القصير، كان ينطق حرف الـ"r" باللهجة اللطيفة الخاصة بأقاليم وسط فرنسا، وكان يتأمل في الحديث البليغ والمتحمس لجاك سيه بابتسامة هادئة، وعند الاقتضاء كان بوسعه استدراجه إلى فخ الغضب بكلمة ذكية، ولكن أنطوان الكسول البدين، امتنع عن الوقوع في نفس الفخ مع صديقه! إذًا ما فائدة الكفاح من أجل شيء أو ضد شيء، طالما لا يتوقف ذلك علينا؟ في المآسي فقط نشاهد الصراع البطولي الثرثار بين الواجب والمتعة، وإنما في حالة عدم وجود أي خيار، نقوم بواجبنا من غير تلكؤ، ليس تفكيره أكثر إبهاجًا! فأنطوان نوديه لم يعجب بشيء ولم يشتك من شيء، يقول له العقل إنه طالما انطلق القطار، وطالما الحرب تحركت، فعلينا أن نسير معه: ليس هناك رأي آخر، أما بالنسبة للبحث عن المبررات، فهذا ضياع وقت، طالما فُرض عليّ القتال، ما فائدة أن أعرف أنه كان من الممكن أن أتجنب انشغالي في القتال، لو كان حدث ما لم يحدث؟!

المبررات! بالنسبة لبيرنارد سيسيه، كانت هي المسألة الأولية، وكان يجهد في تفكيك تلك العقدة من الثعابين، أو بالأحرى كان يحملها على رأسه مثل آلهة الجحيم في الأساطير الإغريقية.

كان بيرنارد فتى رقيقا، متميزا، متحمسًا، عصبيًا جدًا، يُحرق بحساسية دماغية طافحة بالحيوية تتمتع بها البرجوازية الثرية المكونة من العائلات الجمهورية القديمة التي شغلت أرقى مناصب الدولة، ولذلك كان بيرنارد يؤمن بأهواء ثورية متطرفة، كان قد تأثر أكثر من اللازم بآراء رجالات العصر ونتائج أفعالهم، كان يتهم

كل الحكومات وخاصة حكومته، لم يعد يتحدث إلا عن النقابيين والبلشفيين، فقد اكتشفهم قريبًا وتقرب منهم كأنه يعرفهم منذ طفولته، ودون أن يعرف ما هو الحل بالضبط، كان يعتقد بأن الحل هو انقلاب شامل للمجتمع، كان يكره الحرب، ولكنه كان سيضحي بحياته بكل سرور في حرب طبقية، أي حرب ضد طبقته الخاصة، حرب ضد نفسه.

أما رابع المجموعة، "كلود بوجيه"، فكان يتفرج على هذه المبارزة الكلامية باهتمام بارد وبقليل من الاحتقار، إذ أتى من البرجوازية الفقيرة البسيطة، انتزعه من إقليمه مفتش كان يمر بقريته ولاحظ ذكاءه، فأخذه من حميمية الأسرة قبل الأوان، فأصبح هذا الشاب طالبًا بمنحة دراسية في الليسيه وتعوّد على الحياة وحده وعلى الاعتماد على نفسه والعيش من أجل نفسه ومع نفسه.

فيلسوف معجب بنفسه، مكرس لتحليل النفس، منغمس في استبطان ذاته برغبة شديدة، مثل قط كبير يلاحق كرة من الصوف، لا يكترث لاضطرابات الآخرين، وأصدقاؤه الثلاثة، الذين لا يستطيعون أن يتفقوا معه، وضعهم في نفس السلة، سبت "الشعبيين"، ألا ينتهك هؤلاء الثلاثة قوانين طبقتهم، برغبتهم في المشاركة في طموحات الجماهير؟ في الحقيقة، كان كل واحد منهم يرى الجماهير بشكل مختلف، وأيًا كانت الجماهير -بالنسبة لبوجيه- فإنها دائمًا مخطئة، الجماهير هي العدو، على الروح أن تظل وحيدة وتتبع قوانينها الخاصة حتى تنشئ مملكة فكرية مغلقة، بعيدًا عن الفظاظة وعن الدولة، مملكة الفكر الصغيرة المغلقة.

وبيير، الجالس بالقرب من النافذة، كان ينظر إلى الخارج ويحلم، عادةً كان يندمج بحماس في تلك المعارك الفكرية الشابة، ولكنها تبدو له اليوم كدندنة من الكلمات عديمة الجدوى، يسمعها من بعيد، بعيد جدًا، شبه فاتر النشاط، منزعج ومستهزئ، والآخرون المنهمكون في مناقشاتهم، لم يلاحظوا سكوت بيير إلا بعد زمن، ولكن، في النهاية، اندهش سيسيه من عدم سماع صوت بيير، الذي طالما كان صدى لحديثه البلشفي، فناداه.

استيقظ بيير من خموله، احمرّ، ابتسم، ثم قال:

- عم تتحدثون؟

انزعجوا.

- ألم تسمع شيئًا؟

سأله نوديه:

- فيم كنت تفكر، إذًا؟

أجاب بيير، في حالة من الحيرة والوقاحة:

- في الربيع، لقد جاء دون إذنكم، وسيذهب من دوننا.

نظر الجميع إليه بازدراء، نعته نوديه بأنه "شاعر"، وجاك سيه بأنه "متصنع".

بوجيه وحده حدق في بيير بفضول وسخرية، من ثنايا عينيه الباردتين، فقال:

- نملة طائرة!

رد عليه بيير، مستمتعًا:

- نعم؟

قال بوجيه:

- احذروا من جناحيها! إنه طيران العرس، لا يستمر إلا ساعة واحدة.

قال بيير:

والحياة ليست أطول.

أثناء أسبوع الآلام التقيا كل يوم، كان بيير يزور لوس في منزلها المنعزل، كانت الحديقة الجافة تصحو، هناك كانا يمضيان الظهيرة، ويستثقلان ظل باريس والجماهير والحياة، حتى أنه في لحظات معينة كان نوع من الشلل الأخلاقي يجبرهما على الصمت والسكون، أحدهما بجانب الآخر، من دون رغبة في الحركة، ثمة شعور غريب كان يقلق خواطرهما، كانا يشعران بالخوف، الخوف من اقتراب اليوم الذي سيمنح أحدهما نفسه إلى الآخر، والخوف من الإفراط في الحب وصفاء الروح، تلك الروح التي يخيفها ذل الحياة وقسوتها وعارها، والتي تحلم بالحرية، في نشوة من الشوق والشجن.

لم يتحدثا عن هذه الأمور.

كانت معظم أوقاتهما تمضي في دردشة هادئة عن منزلهما المستقبلي والأعمال التي سيقومان بها معًا، وأسرتهما الصغيرة، كانا ينظمان مقدمًا مسكنهما في أدق التفاصيل: الآثاث، الأوراق، أماكن كل الأشياء، مثل سيدة حقيقية، أحيانًا كانت تتأثر لوس حتى الدموع عند ذكر هذه التفاهات الرقيقة، والصور الأسرية الحميمية للحياة اليومية، كانا يتذوقان الأفراح الصغيرة اللذيذة لمنزلهما الزوجي الذي سيأتي، وكانا على علم بأن لا شيء من تلك الأفكار ستتحقق، بيير، بفضل حدسه المتشائم الفطري، لوس بفضل بصيرة المحبة التي تعرف استحالة الزواج على المستوى العملي، لذلك استعجلا تذوقه في الحلم، وكل منهما يخفي عن الآخر يقينه بأنها أحلام فحسب.

كان كلاهما يظن أنه يمتلك وحده هذا السر، ويحافظ بحنان على وهم الثاني.

عندما استنزفا الملذات المؤلمة الخاصة بالمستقبل المستحيل، شعرا بالإجهاد، كأنهما عاشا ذلك الحلم، فارتاحا جالسين تحت العريشة المصنوعة من الأغصان اليابسة، حيث ذوبت الشمس نسغها المجمد، وأسند بيير رأسه على كتف لوس واستمعا حالمين إلى دوي الأرض، تحت الغيوم العابرة كانت شمس مارس الجديدة تلعب الاستغماية، ثم تضحك وتختفي، أشعة فاتحة، ظلال داكنة، تمر على السهول، كما تمر الآلام والسرور في الروح.

قال بيير بغتةً:

- لوس، ألا تتذكرين؟ منذ زمن، زمن طويل.. قد التقينا من قبل.

قالت لوس:

- نعم، إنه حقيقي، كل شيء.. أتذكر كل شيء.. ولكن أين كنا؟

استمتعا بتخيل الأشكال التي ربما التقيا فيها من قبل، هل كانا بشرًا؟ ربما، ولكن بالتأكيد كان بيير في شكل فتاة، ولوس في شكل رجل عاشق، أو ربما كانا عصفورين في الهواء؟ عندما كانت طفلة، كانت أمها تقول إنها إوزة صغيرة متشردة وقعت من فوهة مدفأة، آه! وقد انكسر جناحاها انكسارًا تامًا! ولكن، ما هو الشكل المفضل لديهما للتخيلات عن لقائهما؟ لعله لقاء تلك الهيولى التي تتداخل وتتشابك وتتكور وتنبسط مثل حلزونات الأحلام أو مثل الدخان: غيوم بيضاء تذوب في هاوية السماء، أمواج صغيرة تتلاعب، مطرة على الأرض، ندى على الأعشاب، بذور هندباء تطفو مع الهواء، وأمل يحدوها أن تكون الرياح مواتية فتحملهما معًا وإلا سيفترقان إلى الأبد.

قال بيير:

- أنا، أظن أننا لم نترك بعضنا البتة، كنا معًا، كما نحن الآن، مستلقيان أحدنا أمام الآخر، وكنا نائمين ونحلم. أحيانًا نصحو.. وحالما أشعر بنفسك، بخدك على خدي.. نبذل مجهودًا كبيرًا، نقرب فمينا، ثم نخلد إلى النوم مرة أخرى، حبيبتي، حبيبتي، أنا هنا، أمسك بيدك، لا تتركيني! لم تأت بعد ساعة الفراق، بالكاد أبدى الربيع طرف أنفه الجليدي.

قالت لوس:

- مثل أنفك.

- قريبًا سنصحو، في يوم صيفي جميل.

قالت لوس:

- سنكون مثل يوم صيفي جميل.

- ظل الزيزفون الدافئ، الشمس بين الأغصان، رنين النحل.

- الخوخ النابت في الجدران الدافئة، ولبه الطيب.

- قيلولة الحصادين، وحزمهم الذهبية.

- القطعان الكسول وقد أتت على مروجها.

- وفي المساء، وقت المغيب، سنكون مثل بركة مزهرة، ومثل النور المنساب الذي يجري بمحاذاة الحقول.

قالت لوس، مشيرة إلى المدينة وأبخرتها:

- سنكون كل شيء، كل ما هو طيب وحلو، للرؤية وللامتلاك، للتقبيل، للأكل، للمس وللتنفس، الباقي سنتركه للآخرين.

ضحكت ثم حضنت صديقها وقالت:

- لقد غنينا أغنيتنا الثنائية الصغيرة، ما رأيك يا صديقي، "بييروه"؟

قال:

- نعم، يا "جيسيكا".

استأنفت لوس الحديث:

- مسكين يا بييروه، لم نخلق للعيش في هذا العالم الذي لا يحسن سكانه من الأغاني إلا النشيد الوطني (10).

قال بيير:

- بل ليتهم يحسنون ذلك حتى!

- نحن أخطأنا المحطة، نزلنا قبل الأوان.

قال بيير:

- أخشى أن المحطة القادمة قد تكون أسوأ، هل ترينتا يا حبيبتي في مجتمع المستقبل، في الخلية التي وعدونا بها، حيث لا يملك أحد فرصة العيش إلا من أجل ملكة النحل، أو من أجل الجمهورية؟

قالت لوس:

- نضع البيض من الصباح إلى المساء بغزارة، مثل مدفع رشاش، أو نلعق بيض الآخرين، من الصباح إلى المساء، شكرًا على هذا التشبيه!

قال بيير، ضاحكًا:

- آه! يا لوس، يا لسوء أدبك وما أقبح ردودك!

- نعم، إنها قبيحة جدًا، أعرف ذلك، لست نافعة لشيء، تمامًا مثلك أيها الصديق، لا تصلح لقتل الرجال أو لتشويههم في الحرب، كما أنني لا أصلح لأخيط جروحهم، مثلما يخيطون بطون هذه الخيول المسكينة التي تُبعج أمعاؤها في سباق الثيران، ثم يعاد استخدامها للسباقات اللاحقة، نحن كائنات عديمة الفائدة، بل خطيرة، لدينا قناع تافه بأن نعيش من أجل الحب فيما نحبه، مثل حبيبي الصغير، وأصدقائي، والناس الطيبين والأطفال الصغار، ونور الصباح الجميل، وأيضًا الخبز الأبيض اللذيذ، وكل ما هو جميل وطيب، يا للعار! يا للعار! اشعُر بالخجل من أجلي، يا بييروه! لسوف نلقى عقابًا! لن يكون لنا مكان في ورشة الدولة التي سيتحول إليها كوكب الأرض، حيث سيعمل الإنسان دون راحة ولا رحمة، الحمد لله، لن نكون هناك!

قال بيير:

- نعم، يا لها من سعادة!

"إن متّ في أحضانك يا سيدتي، سأفرح

ولن أرنو إلى شرف أعظم

من أن أرى نفسي وأنا أقبلك

ثم أطلق نَفسي الأخير في صدرك"

- حسنًا، أيها الحبيب، هذا أسلوب جيد!

- إنه أسلوب فرنسي أصيل.

إنها أبيات لـ"رونسار".

قال بيير:

"فبعد مئة عام من دون صيت ولا مجد

لا أطلب إلا أن أموت في سكينة حضنك

يا كاسانرد".

تنهدت لوس:

- مئة عام! ليس الأمر صعبًا!

"لأنني مخطئ، فموت مثل هذا

يسعدني أكثر من أمجاد قيصر كافة

أو من انتصارات الإسكندر".

- أيها الشقي الشرير، ألا تخجل؟ في زمن الأبطال الذي نعيش فيه؟

- إنهم كثيرون، من الأفضل أن أبقى شابًا وعاشقًا، من أن أصبح رجلاً.

قالت لوس:

- طفل امرأة، ما زال على فمه لبن صدري.

ثم ضمته إلى أحضانها قائلة:

- يا صغيري أنا!

لا شك أن الناجين من هذه الأيام، أولئك الذين كانوا شهودا فيما بعدها على تقلبات الدهر المبهرة، قد نسوا الطيران الثقيل الرهيب للأجنحة المعتمة التي كانت تغطي جزيرة "إيل دي فرانس" وظلالها تلامس مدينة باريس في ذلك الأسبوع، لم يعد السرور يأخذ في عين الاعتبار ذكرى التجارب الماضية، وصل الهجوم الألماني إلى ذروته بين يوم الاثنين العظيم ويوم الأربعاء العظيم من الأسبوع المقدس، ثم عبر الألمان نهر "لاسوم"، واحتلوا "باپوم"، "نيزل"، "جويسكار"، "روا"، "نوايون" و"آلبير"، واستولوا على أحد عشر ألف مدفع، وأوقعوا ستين ألف أسير، وداسوا بأرجلهم على

رمز أرض النعمة، وفي يوم الثلاثاء من عيد الفصح توفي المؤلف الموسيقي القدير ديبوسي، تحطم القيثار! "مسكينة اليونان التي تحتضر!" ماذا سيبقى منها؟ بعض الأوعية المنقوشة، وبعض اللوحات التذكارية الكاملة ستبتلعها الحشائش على طريق المقابر، آثار خالدة لأثينة الخربة.

كان بيير ولوس يتأملان الظل الذي يخيّم على المدينة، وكأنهما على قمة تل، وما زالا ملتفين بأشعة حبهما، منتظرين من دون خوف نهاية هذا اليوم القصير، كانا سينفصلان ليلًا، ومثل صلاة التبشير الملائكي في المساء، كانت تصعد إليهما ذكرى أنغام ديبوسي بكآبتها المغرية التي قد أحبها العاشقان، وقد استجابت الموسيقى إلى احتياجات قلبيهما أكثر من أي وقت مضى، فهي الفن الوحيد الذي يعطي صوتًا للروح المنعتقة، وراء حجاب الشكل.

في يوم الخميس من عيد الفصح ذهب بيير ولوس إلى شوارع ضواحي المدينة التي غمرها المطر، وكانت لوس متكئة على ذراع بيير وممسكة بيده، كانت ضربات الهواء تهب على السهول المبتلة، ولكنهما لم يلاحظا المطر ولا قبح الحقول، ولا الطريق الموحلة، وجلسا تحت جدار أسفل حديقة، حيث كان جزء من الحائط قد انهار منذ وقت قريب، تحت مظلة بيير، التي كانت بالكاد تحمي رأسيهما وأكتافهما، كانت لوس تنظر إلى الماء الذي يتقطر، بساقيها المتدليتين ويديها المبتلتين ومعطفها المبلل، وعندما كان الهواء يهز الأغصان، كانت ترش الماء بتكتكة رقيقة، كانت لوس ساكتة مبتسمة مشرقة ومستكينة، وكان سرور عميق يغمرهما.

قال بيير:

- لماذا نتبادل هذا القدر العظيم من الحب؟

- آه، بيير، وحده هذا التساؤل يعني أن حبك لي ليس كبيرًا!

قال بيير:

- إني أسألك، حتى أدفعك لقول ما أعرفه أنا أيضًا.

قالت لوس:

- تريد أن أجاملك، لكن دورك في تقديم المجاملة سيأتي؛ لأنك قد تعرف لماذا تحبني، ولكني لا أعرفه.

قال بيير، في ذهول:

- ألا تعرفينه؟

قالت لوس، وهي تخفي ضحكاتها:

- لا! ولا أحتاج أن أعرف، عندما نتساءل عن شيء، فهذا يعني أننا في شك منه، وأنه شيء غير جيد، طالما أحب، فلا داعي للأسئلة، لماذا، ومتى وكيف! حبي حاضر، حبي حاضر، وليكن كل وجود بعده كما يشاء.

قبّلا وجهي بعضهما البعض، واستغل المطر القبلة لينزلق تحت المظلة الخرقاء ويلامس شعرهما وخدودهما بأصابعه، فشرب العاشقان قطرة صغيرة وباردة بين شفاههما.

قال بيير:

- والآخرون؟

سألت لوس:

- أي آخرين؟

أجاب بيير:

- المساكين، كل من هم سوانا.

- ليفعلوا مثلنا! ليعشقوا!

- ويكونون معشوقين؟! لوس، ليس الجميع قادرين على الحب!

- بلى!

- كلّا، أنت لا تعرفين قيمة الهبة التي وهبتها لي.

- عطاء قلبك للحب، وشفتاك للمحبوب، مثل عطاء عينيك للنور، إنه ليس بالعطاء، بل أخذ.

- هناك ناس عميان.

- لا نستطيع أن نشفيهم يا بيير، فلنرَ نحن في مكانهم!

بقي بيير صامتًا، وقالت لوس:

- بمَ تفكر؟

- أفكر في أنه في مثل اليوم، في قديم الزمان، عانى من أقسى الآلام مَن نزل إلى الأرض لشفاء العميان.

أخذت لوس يد بيير.

- هل تؤمن به؟

- لا، يا لوس، لم أعد أؤمن، لكنه سيبقى صديقًا دائمًا لهؤلاء الذين استقبلهم مرة في مائدته، وأنت، هل تعرفينه؟

أجابت لوس:

- أعرفه بالكاد، لم يكن ثمة من يحدثني عنه، ولكني أحبه، دون أن أعرفه؛ لأنني أعرف أنه قد أحب.

- ليس حبه كعشقنا.

- لم لا؟ نحن لدينا قلب صغير مسكين لا يتقن إلا محبة شخص واحد، أنت يا حبيبي، بينما هو، كان يحبنا كلنا. وكان حبه مثل حبنا.

سأل بيير متأثرًا:

- هل تريدين أن نذهب غدًا لنحتفل بذكرى وفاته؟ قالوا لي إنهم سيقيمون حفلا موسيقيًا جميلا في كنيسة "Saint Gervais".

- نعم، أريد أن أذهب معك إلى الكنيسة في يوم مثل الغد، أثق أنه سيرحب بنا بحفاوة، وعندما نقترب منه فكأننا نقترب من بعضنا البعض.

صمتا، ثم المطر، المطر والمطر، سقط المطر، وسقط الليل.

- غدًا سنكون هناك في مثل هذا التوقيت.

تسلل الضباب إلى الأجواء فارتجفت لوس.

سأل بيير، قلقًا:

- حبيبتي، ألا تشعرين بالبرد؟

قامت لوس.

- كلّا، كلّا، كل ما حولي حب، أحب كل شيء وكل شيء يحبني، يحبني المطر، يحبني الهواء، والسماء الرمادية والبرد، وحبيبي العزيز.

ظلت السماء متوترة بشرتها الرمادية الطويلة، في يوم الجمعة الحزينة، ولكن الجو كان معتدلاً وهادئًا، في الشوارع انتشرت زهور النرجس والقصيصة، التقط بيير بعضًا منها فأمسكتها لوس بيدها، مرا برصيف "Quai des Orfèvres" الهادئ، ثم عبرا أسفل "Notre Dame" النقية، كان سحر المدينة المكسوة بنور خافت، يحيطهما بوداعة لطيفة، عند ميدان "Saint Gervais" حطت بعض الطيور إلى أقدامهما، فأتبعها بيير ولوس بعيونهما وهي تطير حول واجهة الكنيسة، حتى هبط أحد الطيور على رأس تمثال.

أعلى سلم فناء الكنيسة الخارجي، وهما يهمان بالدخول، التفتت لوس إلى الخلف، وبين الجماهير، على بعد بضعة خطوات منها، رأث طفلة صهباء في الثانية عشرة من العمر، متكئة على بوابة الكنيسة، يداها مرفوعتان فوق رأسها، وعيناها تنظران إلى

لوس، كان وجهها لطيفًا، وملامحه عتيقة مثل وجوه تماثيل الكاتدرائية، وابتسامتها مبهمة لذيذة روحانية وحنون، ابتسمت لها لوس أيضًا وجعلت بيير ينظر إليها، ولكن نظرة الطفلة مرت بلوس وفجأة فزعت، فغطت الطفلة وجهها بيديها واختفت.

سألت لوس:

- ماذا بها؟

ولكن بيير لم يكن قد رآها.

دخلا، كان الحمام يهدل فوق رأسيهما، وهديله آخر ما سمعا من ضجيج الخارج، فانطفأت أصوات باريس، ذهب الهواء الطلق، وفصل بينهما وبين العالم أنابيب الأرغن والقبب الكبيرة، وستارة الأحجار والأنغام، استقرا في عمق الكنيسة، بين المصلى الثاني والمصلى الثالث، يسار المدخل، احتميا معًا في زاوية إحدى الدعائم، وجلسا على أحد الأدراج، مختفيين عن باقي الجمهور، وأعطيا ظهريهما إلى الكورال ورفعا عينيهما إلى السماء وشاهدا قمة المذبح، والصليب والألواح الزجاجية الملونة في إحدى المصليات الجانبية، كانت الترانيم القديمة تبكي شجنها وتقواها، وبيير ولوس يمسكان بيديهما، مثل وثنيين مسكينين أمام الصديق الأعظم، في الحداد الكنسي. وهمسا معًا في آن واحد:

- أيها الصديق الأعظم، أمامك آخذ هذا الحبيب، وأنا آخذ هذه الحبيبة، اجمعنا! فإنك ترى ما في قلبينا.

وبقيت أصابعهما متشابكة مثل سلة من الخيزران، كانا لحمًا واحدًا، تعبره أمواج الموسيقى وتجعله يرتعش، بدآ يحلمان وكأنهما في السرير معًا، حلمت لوس بالطفلة الصهباء، وبدا لها أنها قد رأتها في المنام في الليلة السابقة، لم تستطع أن تعرف إن كان ذلك صحيحًا، أم إنها كانت تنقل رؤية الحاضر إلى المنام الماضي، ثم سئم رأسها

من هذا الجهد، فترك خيالها يطفو حرًا.

أما بيير، فكان يستعيد أيام حياته القصيرة التي مضت.

القُبَرة التي تعلو السهول بحثا عن الشمس، كم هي بعيدة! كم هي عالية! هل سنصل إليها يومًا؟

تكثف الضباب، لم يعد هناك أرض، لم تعد هناك سماء، القوى تنكسر.

فجأة، عندما تسللت ترنيمة جريجورية تحت قبة الكورال، وانفجر غناء البهجة، صعد جسد القُبَرة الصغير المرتجف، ليطفو فوق بحر الشمس الذي لا ضفاف له.

ضغْط أصابعهما ذكّرهما أنهما كانا يطفوان معًا، فوجدا نفسيهما في ظل الكنيسة، في حضن شديد، يصغيان إلى الترانيم الجميلة، وقلباهما الذائبان في الحب، يرتقيان إلى ذروة السرور الأنقى، وكلاهما تمنى بشوق، بل ابتهلا إلى الله، ألا يهبطا أبدًا.

كانت لوس قد قبلت صديقها للتو بنظرة تشوبها العاطفة بالعاطفة، كانت عينا بيير شبه مغمضتين وشفتاه شبه مفتوحتين، وكأنه في نشوة السعادة، وفي وثبة من الفرحة رفع رأسه تجاه تلك القوة الأسمى التي نبحث عنها في الأعلى عفويًا، ولوس متأثرة، رأت في اللوحة الزجاجية الحمراء في المصلى، وجه الطفلة الصهباء المبتسمة التي رأتها في مدخل الكنيسة، وبقيت ساكنة ومتجمدة من الدهشة، ورأت مرة أخرى على وجه الطفلة، ذلك التعبير عن الخوف والشفقة، وفي اللحظة ذاتها، تحركت الدعامة الكبيرة التي كان بيير ولوس يتكئان عليها واهتزت الكنيسة كلها حتى أسسها، غطى صوت ضربات قلب لوس ضجيج الانفجار وصرخات الجماهير، ودون أن تتاح لها فرصة للشعور بالخوف أو بالألم، ارتمت بجسدها على بيير لتحميه، كما تحمي الدجاجة أطفالها، وابتسم بيير في سعادة بعينيه المغمضتين، وبحركة أمومية وبكل قواها ضمت لوس رأس الحبيب إلى صدرها منطوية عليه وفمها على

عنقه، وتشابك جسداهما معًا وانكمشا، وفجأة هوى العمود الضخم فوقهما.

انتهت

أغسطس 1918

(1) طائرات الجوثاس: المقصود منها الطائرات الألمانية

(2) Michel De L'Hospital، رجل دولة فرنسي حاول تحقيق المصالحة بين الكاثوليكيين والبروتستان في القرن السادس عشر

(3) أيام قديسي الجليد هي ثلاثة أيام من أواسط شهر مايو كان يتوسل المزارعون فيها إلى هؤلاء القديسين لكسر الجليد وإذابته حتى يتمكنوا من زراعة أشتالهم التي لا تتحمل الجليد في مناطق الشمال الفرنسي.

(4) الرجل الذي يضع القيود" تورية من الروائي لاسم صحيفة كانت تصدر في تلك الفترة وكان اسمها "الرجل المقيَّد" والروائي قام بعكس المعنى من باب السخرية.

(5) أشجار واتو Watteau تنسب إلى الفنان الفرنسي أنطون واتو Jean-Antoine Watteau الذي برع برسم الأشجار في القرن السابع عشر.

(6) "نور" هو معنى اسم لوس باللغة الفرنسية.

(7) ستيكس هو نهر في الميثولوجيا الإغريقية والذي يجري سبع مرات حول عالم الأموات.

(8) أغنية أطفال فرنسية شهيرة.

(9) أثناء الحرب العالمية الأولى انضم بعض السكان الأمريكيين الأصليين من قبيلة الآباش إلى صفوف الجيش الأمريكي وحاربوا على الجبهة الفرنسية.

(10) النشيد الوطني الفرنسي.





عن الكاتب



رومان رولان

أديب فرنسي مرموق، ولد في يوم 29 يناير 1866عام ويعتبر من أعظم مفكري جيله وأبرزهم عبقرية وموهبة، كما يعد رومان من أهم المدافعين عن قضايا السلام.

حصل الأديب الكبير على جائزة نوبل عام 1915م لما يتميز به في أسلوبه الأدبي المجرد من الخضوع للتقليد الأعمى أو التأثر بتيار الحماسة الذي كان يجرف بلاده في هذا الوقت قبل الحرب العالمية، امتاز بكونه عقلية موضوعية للغاية ولم تقوده حماسته أو وطنيته للدعوة إلى الحرب مثله مثل البقية على الرغم من كل الظروف المحيطة، وقد كتب عده مقالات عند اندلاع الحرب العالميه الأولي مطالبًا بحقن الدماء وتمسك بذلك الرأي عند اندلاع الحرب العالميه الثانيه أيضًا، إذ اعلن عداوته للنظام النازي وتأييده للنظام الحر ولهذا وبمجرد دخول النازيون فرنسا قاموا بالقبض عليه وتم ارساله للمعتقل في المانيا حتي وافته المنية في يوم 30 ديسمبر 1944م.

وفي عام ١٩١٩ كتب الروائي الفرنسي الحائز على جائزة نوبل للآداب فيما بعد الحرب العالمية الأولى وقبل توقيع اتفاقية فرساي إعلان معنون بـ: إعلان إستقلال

العقل، وفيه دعا رولان إلى إجلال نور العقل والتمسك به في العتمة المحيطة، كما شدد على دعوة المثقفين إلى عدم استخدام العقل كأداة للبروباجاندا وزرع بذور الكراهية فيما بينهم، ونادى إلى استخدام معرفتهم وفنونهم لخدمة الشعوب فوق كل الإختلافات العرقية والطبقية والسياسة والإجتماعية، حتى يتشكل شعب واحد بروح واحدة.

وقد وقع على هذا الإعلان نخبة من أعظم العلماء والفلاسفة والفنانين في ذلك الوقت مثل (آلبرت آينشتاين)، (برتراند راسل)، (رابندرانات طاغور)، (جاين آدامز) و(هيرمان هيسه). ونُشر لأول مرة في جريدة البشرية الناطقة باللغة الفرنسية، وننقل لكم جانبًا منه بترجمته العربية:

إعلان إستقلال العقل

(أيها العمال من أجل العقل، أيها الرفاق المنتشرون في العالم، يا من فرقتهم الجيوش والرقابة والكراهية لخمسة أعوام، نناشدكم في هذه الساعة التي تنهار فيها الحواجز وتفتح فيها الحدود، من أجل استعادة وحدتنا الأخوية، وبأن تكون هذه الوحدة أكثر متانة ويعتمد عليها ومختلفة عن الوحدة التي وجدت بيننا سابقا .. لقد قامت الحرب ببلبلة صفوفنا وأخذها نحو التخبط. معظم النخب من المثقفين وضعوا علومهم وفنونهم ومنطقهم في خدمة الحكومات. نحن لا نبغي إتهام أحد، أو أن نوجه اللوم لأي أحد. نحن نعرف ضعف النفس البشرية والقوة البدائية للتيارات الجمعية الطاغية التي نَحّت هذا الضعف بلحظة واحدة، ولم يكن هناك أي تحضيرات من أجل المساعدة على مقاومتها. فلندع إذا هذه التجربة تساعدنا على الأقل من أجل المستقبل، قفوا جميعا! دعونا نحرر العقل من مساوماته، من تحالفاته المهينة، ومن استرقاقه الخفي. العقل ليس عبد لأحد، ولكن نحن سدنة العقل، وليس لدينا أسياد غيره. نحن نوجد لكي نتمسك وندافع عن نوره، ومن أجل حض البشر المضللين على الإلتفاف حوله. إن مهمتنا تتمحور حول الحفاظ على دعامة ثابته، أن نشير نحو نجم القطب في خضم دوامات النوازع في الليل. وأمام نوازع التكبر

والتدمير المتبادل، ليس لدينا خيار سوى أن نرفضها كلها. نحن نُجل الحقيقة فقط، الحقيقة الحرة، بدون حدود، بدون قيود، بدون اضطهاد أممي أو طبقي. بالتأكيد الإنسانية محور إهتمامنا، نحن نعمل من أجل الإنسانية، من أجلها كوحدة واحدة. نحن لا نعرف شعوبا، نحن نعرف الشعب المتفرد، الكوني، الشعب الذي يعاني، الذي يصارع، الذي يفشل، والذي يقوم أبدا على قدميه، والذي يمضي في الطريق الصعب مضرج بدمه، الشعب الجامع لكل البشر، جميعهم متساوون بالأخوة، ومن الصواب أن يدرك الشعب هذه الإخوه كما ندركها، وأن نتسامى فوق الصراعات العمياء. إن تابوت العهد، ألا وهو العقل الحر، واحد ومتنوع، وأبدي).

وهكذا عرف رومان عالميًا ككاتب ومفكر له ثقله ووزنه، ولا يعلم الكثيرون أنه كان موسيقياً ممتازاً ومؤرخاً للموسيقى في عصره إضافة إلى كونه رجل حر وداع للسلام، ومن أهم أعماله الأدبية التي اشتهر بها وتظل علامة فارقة في تاريخ الأدب الفرنسي هي سلسلة روايات (جان كريستوف 1912-1904) والتي تقع في عشرة أجزاء، كما أنها أقرب إلى أن تكون ترجمة لشخصية خيالية، تجتمع فيها قصص حياة أبطاله السابقين، إضافة إلى أنه قد بدأ حياته بكتابة عدد كبير من القصص المسرحية منها سان لويس 1897، الذئاب 1898، انتصار العقل 1899، دانتون 1900، وعدة تراجم خاصة بحياة الأبطال الذين اعتبرهم مثلا أعلى لما يجب أن يكون عليه الفرد، منها حياة بيتهوفن 1903، حياة ميشيل آنج 1906، حياة تولستوى 1913، المهاتما غاندي 1926

وتعتبر رواياته (بيير ولوس) من أجمل ما كتب في الحب والحرب، حيث قام بتجسيد قصة حب مأسوية أثناء الحرب العالمية الأولى بين شاب وفتاة باريسية اللذان شهدت حياتهما فاصل كبير من العشق الذي يمتزج بالشجن نتاج الأحداث التي شهدتها البلاد.